القيـــم في مهب الريح

أزمة الإنسان المعاصر

خالد أمغير

القيم في مهب الريح

ازمت الانسان المعاصر

كتاب

لخالد أمغير

حقوق الملكية الفكرية

© 2025 خالد أمغير

هذا العمل مرخّص **بموجب رخصة المشاع الإبداعي – النَسب 4.0 الدولية**

(Creative Commons Attribution 4.0 International)

للاطلاع على شروط الترخيص الكاملة، يُرجى زيارة:

https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/deed.ar

الكتاب: **القِيَم في مهبّ الريح: أزمة الإنسان المعاصر**

المؤلف: خالد أمغير

البريد الإلكتروني: amghayark@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف وفقًا للقوانين المعمول بها ووفق شروط رخصة المشاع الإبداعي.

اهداء

إلى كل من لا يزال إنسانًا؛ من حافظ على فطرته السليمة، وقيمه الأصيلة، ومبادئه الراسخة في زمن التحديات المعاصرة.

بكل الود والتقدير.

بسم الله الرحمن الرحيم

جدول المحتويات

تمهيد: لماذا هذا الكتاب الآن؟ ________________4

مقدمة ______________________________ 10

الفصل الاول الواقع الراهن: بين التقدم وتآكل القيم __ 15

تشخيص الواقع: لوحة بألوان متباينة ___________ 16

مظاهر الانحطاط: شروخ في جدار المجتمع؟ _______ 20

وسائل التواصل الاجتماعي: فضاء للتواصل أم للتيه؟ __ 24

سطوة الاستهلاك: عندما يصبح الشراء هوية _______ 30

الفصل الثاني أصول الأزمة ________________35

البحث عن الجذور: حفر في تربة الماضي__________ 37

1. العوامل التاريخية: إرث ثقيل وتحولات مربكة ____ 38

2. العوامل الاجتماعية والاقتصادية: ضغوط الحياة وتغير الأولويات ______________________________ 43

3. أزمة التعليم: فشل في بناء الإنسان قبل المكان ____ 48

4. دور الأسرة المتغير: تراجع الحصن الأول ________ 53

5. تأثير الإعلام والثقافة الوافدة: غزو ناعم للعقول والقيم 58

الفصل الثالث فقدان البوصلة 65

ما هي الهوية؟ لغز يتجدد 68

أسباب أزمة الهوية في زمن التيه: 71

تجليات أزمة الهوية: أعراض الضياع 80

نحو استعادة البوصلة: البحث عن هوية متوازنة 85

الفصل الرابع إعادة التوازن: سبل الخروج من الأزمة 89

أولاً: رحلة إلى الداخل - إصلاح الذات كأساس للتغيير 91

ثانياً: بناء الحصون - دور الأسرة والمؤسسات التعليمية 95

ثالثاً: الخروج إلى المجتمع - المبادرة والإيجابية والتأثير 98

الفصل الخامس خاتمة الأزمة: نحو استعادة القيم وبناء إنسان جديد 101

أولاً: سيناريوهات المستقبل - بين هاجس التشاؤم وبارقة التفاؤل 104

ثانياً: نماذج ملهمة - دروس من التاريخ والتجارب الناجحة 111

ثالثاً: دعوة للعمل - معًا نصنع المستقبل 118

المراجع ______________________________ 124

تمهيد: لماذا هذا الكتاب الآن؟

تحدث أحيانًا نقاشات عابرة، ربما على رصيف قرب جامعة أو في تجمع عائلي أو حتى في مكان عمل، تمتد من مواضيع عادية إلى تأملات أعمق حول حياتنا والزمن الذي نعيش فيه. أنا خالد، طالب في مرحلة جامعية، ومثل الكثيرين، أجد في هذه الحوارات فرصة لتبادل الأفكار ومحاولة فهم وجهات نظر مختلفة، سواء كانت من جيلي أو من أجيال سبقتنا أو لحقت بنا.

في أحد هذه النقاشات التي جمعت أعمارًا مختلفة، دار الحديث حول المستقبل والتحديات التي تواجهه الأجيال الحالية. بدأ شاب متحمس يتحدث عن خططه للسفر للخارج بحثًا عن فرص أفضل، معتبرًا أن البقاء قد يكون مضيعة للوقت. بينما كان يتحدث، لاحظت تباين ردود الفعل؛ إعجاب

من البعض، وتحفظ أو حتى امتعاض من آخرين، خاصة من الأكبر سنًا الذين ربما يرون الأمور من زاوية مختلفة، زاوية ترتبط بالوطن والجذور.

تدخلت سيدة في منتصف العمر، قائلة إنها تتفهم البحث عن الطموح، لكنها ترى أن بناء المستقبل يجب أن يكون له أساس هنا، وأن الحلول الفردية التي تبدو كأنها هروب قد لا تكون هي الحل الأمثل للمجتمع ككل. وأضافت بقلق أنها تلاحظ كيف أن منطق "الغاية تبرر الوسيلة" بدأ يتسلل إلى تفكير البعض، وأن النجاح المادي أصبح يطغى أحيانًا على قيم أخرى كانت أساسية في السابق، مثل الترابط الأسري والمجتمعي.

هنا، تعمق النقاش ليشمل الجميع. تحدث الحاضرون عن الضغوط المختلفة التي يواجهها كل جيل؛ ضغوط تحقيق الذات لدى الشباب، ضغوط الحفاظ على الأسرة وتأمين العيش لدى الكبار، وضغوط التكيف مع عالم سريع التغير

لدى الجميع. تحدثنا عن تأثير الإعلام وصور الحياة "المثالية" التي تُعرض باستمرار، وكيف أنها قد تولد شعورًا بعدم الرضا أو المقارنة المستمرة لدى مختلف الأعمار. تحدثنا عن الشعور بأننا نسير أحيانًا في طرق تبدو مفروضة، دون أن نكون متأكدين تمامًا من وجهتنا أو قيمنا الحقيقية.

في وسط هذا النقاش المتعدد الأجيال، وجدت نفسي أفكر مجددًا في كلمة **"التيه"**. ليس فقط كتحدٍ يواجه الشباب، بل كحالة قد تمس أي إنسان في هذا العصر. هو فقدان للوضوح الداخلي، شعور بعدم اليقين تجاه القيم والأولويات، وتأثر بالآراء والتيارات المتضاربة دون وجود مرجعية ثابتة. هذا الشعور بأن الخيارات تبدو مربكة، وأن الطريق الصحيح غير واضح المعالم. هل هذا هو التيه الذي نشعر به جميعًا بدرجات متفاوتة؟ أن نكون محاطين بكم هائل من المعلومات والإغراءات، ولكننا نشعر أحيانًا بفراغ داخلي أو بحيرة حول الاتجاه الصحيح؟

انتهى النقاش، لكن الأفكار بقيت تتردد. أدركت أن هذه الحيرة وهذا الشعور بالتيه ليسا حكرًا على جيل دون آخر، بل هما سمة من سمات عصرنا الحالي، تؤثر فينا جميعًا وإن اختلفت مظاهرها. نرى التناقضات في كل مكان: دعوات للتمسك بالقيم الأصيلة، وفي نفس الوقت إغراءات قوية نحو الاستهلاك والمظاهر. نسمع عن أهمية المبادئ والأخلاق، ولكن نرى أحيانًا أن المصالح الشخصية أو النجاح السريع هو ما يحظى بالاهتمام الأكبر.

هذا الكتاب، "القيم في مهب الريح: أزمة الإنسان المعاصر"، هو محاولة متواضعة مني كطالب، ولكن أيضًا كفرد يعيش في هذا المجتمع ويحاول فهم تعقيداته. هو ليس بحثًا متخصصًا يقدم حلولاً قاطعة، بل هو أقرب إلى تأملات وملاحظات مستوحاة من نقاشات وحوارات أسمعها وأشارك فيها، ومن ملاحظاتي لما يجري حولي. هو محاولة لطرح الأسئلة التي قد تكون في ذهن الكثيرين، بغض النظر عن عمرهم أو موقعهم. محاولة لتشخيص بعض

جوانب هذا الشعور بالتيه الذي يبدو أنه يمس نسيج مجتمعنا.

لماذا هذا الموضوع مهم الآن؟ لأن الشعور بالتيه، إذا تُرك دون فهم أو مواجهة، قد يؤدي إلى حالة من اللامبالاة أو التذمر أو اتخاذ مسارات خاطئة تؤثر على مستقبلنا كأفراد وكمجتمع. أعتقد أن الخطوة الأولى للتعامل مع أي تحدٍ هي فهمه وتشخيصه بشكل صحيح. وهذا ما سنحاول القيام به في الفصول القادمة: تحليل بعض مظاهر هذا التيه في حياتنا اليومية، البحث في بعض جذوره المحتملة، ومناقشة بعض الأفكار التي قد تساعدنا على استعادة بعض الوضوح والتوازن.

سنغوص في تأثير الثقافة الاستهلاكية، ودور الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعي، والتحديات التي تواجه هويتنا وقيمنا المشتركة. سنبحث أيضًا عن مصادر القوة والأمل، سواء في موروثنا الديني والثقافي الغني، أو في أهمية

التعليم والتفكير النقدي، أو في ضرورة إعادة إحياء قيم التضامن والمسؤولية المجتمعية.

مقدمة

نعيش اليوم في عصر يتسم بسرعة التغير وكثرة المعلومات وتداخل التأثيرات، وهو ما يجعل الكثيرين منا، بمختلف أعمارنا وتجاربنا، نشعر أحيانًا بنوع من الحيرة أو الضياع. هذا الشعور ليس مجرد إحساس عابر، بل يبدو كأنه حالة عامة تتطلب منا التوقف والتفكير. قد نسميه التيه، وهو ليس فقط عدم معرفة الطريق الجغرافي، بل هو أقرب إلى فقدان الوضوح في رؤيتنا للقيم والأهداف، والشعور بأن الأسس التي كنا نعتمد عليها لم تعد ثابتة كما كانت. أمام هذا الواقع، يبرز سؤال مهم ومقلق في نفس الوقت يتردد في أذهان الكثيرين: أين الخطأ؟ ما الذي أوصلنا إلى هذه النقطة التي تبدو فيها الكثير من الأمور ضبابية وغير واضحة؟

هذا الكتاب هو محاولة للإجابة عن هذا السؤال، ليس بتقديم حلول نهائية، فذلك أمر معقد ويتجاوز قدرة أي

فرد، ولكن بمحاولة فهم الأبعاد المختلفة لهذه الظاهرة. كطالب يحاول استيعاب تعقيدات العالم من حوله، ولكن أيضًا كفرد في هذا المجتمع، أردت من خلال هذه الصفحات أن أشارك بعض الأفكار والتساؤلات التي تدور في ذهني وأعتقد أنها قد تلامس اهتمامات الكثيرين. هي محاولة لتحليل بعض الجوانب التي قد تكون ساهمت في شعورنا بهذا التيه، مثل تأثير الاستهلاك المتزايد، ودور وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي، والتحديات التي تواجه هويتنا وقيمنا المشتركة في عالم مفتوح.

أحد الجوانب الواضحة التي نلاحظها جميعًا هو كيف أصبحت النزعة الاستهلاكية جزءًا كبيرًا من حياتنا. يبدو أن قيمة الأشياء أصبحت تطغى أحيانًا على قيمة الأفكار والعلاقات. نجد أنفسنا، أو من حولنا، نسعى لامتلاك أحدث التقنيات أو المقتنيات، ليس بالضرورة للحاجة الفعلية، ولكن لأنها أصبحت تمثل شكلاً من أشكال المكانة أو التمايز الاجتماعي. هذا التركيز على الماديات قد يبعدنا عن

البحث عن الرضا الحقيقي الذي يأتي من الإنجاز الهادف أو العلاقات الإنسانية الصادقة، ويتركنا في حالة من البحث الدائم عن الشيء التالي الذي نعتقد أنه سيجلب لنا السعادة أو القبول.

بالتوازي مع ذلك، لا يمكن تجاهل الدور الكبير الذي تلعبه وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي في تشكيل وعينا وتصوراتنا. لقد أتاحت لنا هذه الوسائل فرصًا للتواصل والمعرفة لم تكن متاحة للأجيال السابقة، لكنها في نفس الوقت خلقت تحديات جديدة. أصبحنا نتعرض لسيل مستمر من المعلومات والصور التي تقدم غالبًا نماذج حياة مثالية أو مبسطة، مما قد يولد شعورًا بالمقارنة أو عدم الرضا عن واقعنا لدى البعض. كما أن طبيعة هذه المنصات التي تركز على المحتوى السريع والمختصر قد تؤثر على قدرتنا على التركيز والتفكير العميق والتحليل المتأني للقضايا المعقدة.

هذه العوامل وغيرها تضعنا أمام تحدٍ كبير يتعلق بهويتنا وقيمنا المشتركة. كمجتمع له جذوره وتاريخه وقيمه، نجد أنفسنا في مواجهة تأثيرات العولمة والتيارات الثقافية المختلفة التي تصلنا عبر كل الوسائل. كيف نوازن بين الحفاظ على ما يميزنا وبين الانفتاح على العالم والاستفادة منه؟ كيف نرسخ قيمنا الأساسية في نفوس الأجيال الجديدة في ظل كل هذه المتغيرات؟ هذا البحث عن التوازن والهوية في عالم متغير هو جزء أساسي من حالة التيه التي نحاول فهمها في هذا الكتاب.

إن الشعور بالتيه ليس مجرد مشكلة فردية تخص فئة عمرية معينة، بل له انعكاسات على المجتمع ككل. عندما تضعف القيم المشتركة وتصبح المصلحة الفردية هي المحرك الأساسي، قد يؤدي ذلك إلى تراجع الثقة والتضامن وزيادة التحديات الاجتماعية. لذلك، فإن فهم أسباب هذا التيه ومحاولة إيجاد طرق للتعامل معه هو أمر يهمنا جميعًا، كأفراد وكجماعة.

يهدف هذا الكتاب إلى أن يكون مساهمة متواضعة في هذا النقاش المجتمعي الضروري. سنحاول من خلال الفصول القادمة أن نتعمق أكثر في تحليل هذه الظواهر، وأن نستعرض بعض الآراء والأفكار التي قد تساعدنا على رؤية الأمور بشكل أوضح. سنبحث في بعض جذور المشكلة، ونناقش دور القيم والدين في حياتنا، ونستكشف بعض الخطوات التي يمكن أن نتخذها، كأفراد وكمجتمع، لمحاولة استعادة التوازن وإيجاد مسار أكثر وضوحًا في هذا الزمن المليء بالأسئلة والتحديات.

الفصل الاول

الواقع الراهن: بين التقدم وتآكل القيم

"**كل جيل يسخر من الجيل الذي سبقه، ويخشى الجيل الذي يليه**" - مثل إنجليزي

إذا كانت المقدمة هي العتبة التي ولجنا منها إلى رحاب هذا الكتاب، فإن هذا الفصل هو الغرفة الأولى التي نستكشف فيها معالم "زمن التيه" الذي يبدو أنه يلقي بظلاله على حياتنا المعاصرة. هنا، لن نكتفي بالإشارة إلى الضباب الذي قد يشعر به البعض، بل سنحاول أن نسير داخله، نتحسس ملامحه، ونصف بدقة بعض ما نراه ونشعر به في واقعنا. أين نحن اليوم حقًا؟ ما هي السمات التي قد تكون غالبة على قيمنا وسلوكياتنا؟ وكيف يمكن أن تتجلى مظاهر هذا الانحطاط أو التراجع القيمي الذي أشرنا إليه في حياتنا اليومية؟

تشخيص الواقع: لوحة بألوان متباينة

لنبدأ بالنظر حولنا بصدق، دون تجميل مفرط أو تهويل غير مبرر. الواقع الذي نعيشه اليوم يبدو أشبه بلوحة فنية

معقدة، تمتزج فيها ألوان زاهية وبراقة قد تخطف الأبصار للوهلة الأولى، لكن عند التدقيق، قد نكتشف أن تحت هذه الطبقة اللامعة تختبئ ألوان أخرى باهتة، وظلال قاتمة قد توحي بتآكل داخلي. نحن نعيش في عصر التقدم التكنولوجي المذهل، عصر السرعة والاتصالات الفورية، عصر الوفرة المادية الظاهرية للبعض، لكن في الوقت نفسه، قد يشعر الكثيرون بفراغ روحي متزايد، أو بضياع قيمي مقلق.

إحدى السمات التي يصف بها بعض المفكرين زماننا هي السيولة، كما أشار عالم الاجتماع البولندي زيجمونت باومان في أعماله، أبرزها كتابه "الحياة السائلة". يبدو أن الكثير من الأمور أصبحت سائلة، غير مستقرة، وقابلة للتغير السريع: العلاقات، الهويات، الوظائف، وحتى بعض القيم التي كانت تعتبر ثابتة. لم تعد هناك دائمًا ثوابت راسخة يمكن للجميع الارتكاز عليها بنفس القدر كما كانت الأجيال السابقة. قد لا يحمل الوعد نفس القدسية دائمًا، والالتزام

قد يبدو أحيانًا عملة نادرة. الصداقات قد تُبنى وتُهدم بسهولة أكبر في العالم الافتراضي، والعلاقات العاطفية قد تتأثر بثقافة الاستهلاك العابر، ومؤسسة الزواج نفسها تواجه تحديات وضغوطًا متزايدة في ظل تنامي الفردانية وتقلب الرغبات.

تنتشر ثقافة الفردانية بشكل ملحوظ. "الأنا" ورغباتها واحتياجاتها الآنية قد تحتل أحيانًا مركز الاهتمام. هذا التركيز على الذات، وإن كان له جوانب إيجابية في تعزيز الاستقلالية وتحقيق الطموحات الشخصية، إلا أنه قد يؤدي في المقابل إلى تآكل الشعور بالانتماء للجماعة، وضعف الإحساس بالمسؤولية تجاه الآخرين. قد نجد أنفسنا نعيش أحيانًا في جزر شبه منعزلة، نتواصل بشكل سطحي، ونتردد في الانخراط في علاقات عميقة تتطلب التزامًا وتضحية. قيم التضامن والتكافل، التي طالما ميزت مجتمعاتنا العربية، قد تبدو أحيانًا وكأنها تتراجع أمام ضغوط الحياة الحديثة، حيث يفضل الكثيرون في المدن الكبرى، مثل

الرياض أو الدار البيضاء، العزلة في شققهم الخاصة والاعتماد على تطبيقات التوصيل، بدلًا من التفاعل المباشر مع الجيران أو المشاركة في الأنشطة المجتمعية.

قد ترافق هذه الفردانية سطحية مقلقة في التعامل مع بعض الأمور. في زمن السرعة وتدفق المعلومات الهائل، قد نفقد القدرة على التركيز والتعمق. نستهلك الأخبار والمعلومات والأفكار أحيانًا كما نستهلك الوجبات السريعة، دون تمحيص كافٍ أو تحليل معمق. الحوارات قد تكون سطحية في بعض الأحيان، تفتقر إلى العمق والنضج اللازمين. قد يصبح المظهر الخارجي معيارًا أساسيًا للحكم على الأشخاص والأشياء. نهتم بالقشور ونغفل عن اللب، ننبهر بالصورة وننسى الجوهر أحيانًا. هذه السطحية قد تتجلى بوضوح في المحتوى الرائج على بعض المنصات الرقمية، حيث غالبًا ما تحتل التفاهة أو الترفيه السهل صدارة المشهد، بينما تُهمش الأفكار الجادة والنقاشات البناءة. على سبيل المثال، برامج "المقالب" أو تحديات

الرقص السطحية على "تيك توك" تحصد ملايين المشاهدات في العالم، بينما المحتوى الثقافي أو العلمي الجاد يجد صعوبة في الوصول إلى نفس الانتشار.

مظاهر الانحطاط: شروخ في جدار المجتمع؟

هذه السمات العامة – السيولة، الفردانية، السطحية – لا تبقى مجرد مفاهيم نظرية، بل قد تتجسد في مظاهر ملموسة نراها أو نعيشها يوميًا، وهي قد تكون بمثابة شروخ تتسع في جدار المجتمع، مهددة تماسكه واستقراره. تتعدد هذه المظاهر وتتشعب لتلامس مختلف جوانب حياتنا.

ففي **العلاقات الأسرية**، نجد أن الأسرة، التي كانت دومًا الحصن المنيع والقيمة العليا في ثقافتنا، تتعرض لضغوط هائلة. قد نشهد فتورًا في العلاقات بين الأزواج، وتصاعدًا مقلقًا في نسب الطلاق التي تهدد استقرار النواة الأولى للمجتمع. حوار الأجيال قد يضعف أحيانًا، حيث

قد يعيش الآباء والأبناء في عوالم شبه منفصلة، تفصل بينهم فجوة رقمية أو قيمية. الأبناء، الذين قد يغرقون في عوالمهم الافتراضية، قد يفقدون تدريجيًا بعض الاحترام لسلطة الوالدين وتوجيهاتهم، بينما يجد الآباء، المنشغلون بضغوط الحياة أو ربما بهواتفهم هم أيضًا، صعوبة متزايدة في التواصل الفعال مع أبنائهم وفهم احتياجاتهم وتوجيههم. مشهد أفراد الأسرة المنشغلين بهواتفهم في مكان واحد أصبح مألوفًا للأسف، وقد يكون شاهدًا على ضعف التواصل الحقيقي. كما أشار المفكر مصطفى محمود في العديد من كتاباته إلى الفراغ الروحي الذي يعيشه الإنسان المعاصر، وكيف يؤثر ذلك على العلاقات الأسرية والاجتماعية.

أما في **التعاملات الاجتماعية اليومية**، فقد نلاحظ تراجعًا في قيم الصدق والأمانة في بعض الأوساط. يبدو أن الغش في التجارة، أو محاولة الحصول على خدمة أو حق بطرق ملتوية، أو شهادة الزور، أو أكل أموال الناس

بالباطل، كلها مظاهر قد تصبح جزءًا من "اللعبة" الاجتماعية والاقتصادية لدى البعض، بل قد يعتبرها البعض سلوكيات "ذكية" للنجاح. نتيجة لذلك، قد تتراجع الثقة بين الناس، ويصبح الشك والحذر هما الأصل في التعامل أحيانًا، مما يزيد من العزلة ويضعف النسيج الاجتماعي. حتى مفهوم الجيرة، الذي كان يعني التكافل والسند في الأحياء الشعبية العربية، قد يتراجع ليصبح مجرد سكن متجاور لأشخاص لا تربطهم بالضرورة روابط حقيقية.

ولا تسلم **بيئة العمل والدراسة** من هذا التآكل القيمي المحتمل. فقيمة العمل الجاد والمتقن قد تتراجع أمام البحث عن الربح السريع أو الوصولية. الغش في الامتحانات قد يصبح ظاهرة مقلقة، مما يفرغ الشهادات من قيمتها وينتج أجيالاً قد تفتقر للكفاءة أو الأخلاق. الواسطة والمحسوبية قد تنخر جسد الإدارة والمؤسسات، مما يحرم الكفاءات ويضعف الأداء ويغذي الشعور بالظلم. فقدان الشغف والإحساس بالرسالة في العمل قد يؤدي

إلى ضعف الإنتاجية وتراجع الإبداع. وقد تفسح المنافسة الشريفة المجال للصراعات الشخصية والمكائد.

وحتى **الفضاء العام**، الذي هو ملك للجميع، لم يسلم. قد نشهد تراجعًا في احترام الآداب العامة. الضجيج المزعج، ورمي النفايات في غير أماكنها، وعدم احترام قوانين السير، وظاهرة التحرش...، كلها سلوكيات قد تعكس أزمة قيمية وأنانية وغيابًا للشعور بالمسؤولية تجاه الآخرين والمجتمع. الفضاء العام قد لا يكون دائمًا مكانًا آمنًا وهادئًا للعيش المشترك.

ويتجلى هذا الانحطاط المحتمل أيضًا في الخطاب العام السائد، خاصة على منصات التواصل الاجتماعي. قد يسود الاستقطاب الحاد والتطرف في الآراء، ونفقد تدريجيًا القدرة على الحوار الهادئ وتقبل الاختلاف. يتحول النقاش بسهولة إلى تبادل للاتهامات والتجريح، بدلًا من التركيز على الأفكار. تنتشر خطابات الكراهية والتنمر، ويتم تضخيم

الخلافات الهامشية لتصرفنا عن القضايا الجوهرية. كما أن ظاهرة "التريندات" السريعة التي تسيطر على النقاش العام في العالم العربي، غالبًا ما تكون سطحية ومثيرة للجدل، وتصرف الانتباه عن القضايا المصيرية التي تحتاج إلى نقاش عميق وبناء.

هذه مجرد أمثلة، لكنها قد ترسم مجتمعة صورة لواقع نعيشه ونلمسه. قد يختلف مستوى حدة هذه المظاهر، لكن الاتجاه العام قد يبدو مقلقًا للبعض: هل نسير في منحدر قيمي خطير؟ هل نفقد توازننا الأخلاقي؟ هل نبتعد عن الأسس المتينة التي قامت عليها مجتمعاتنا؟ أسئلة تستحق التفكير.

وسائل التواصل الاجتماعي: فضاء للتواصل أم للتيه؟

لا يمكن الحديث عن زمن التيه دون التوقف عند الدور المحوري الذي قد تلعبه وسائل التواصل الاجتماعي في تشكيل واقعنا وقيمنا وسلوكياتنا. هذه المنصات، التي

وُجدت لتعزيز التواصل وتقريب المسافات، قد تتحول أحيانًا إلى فضاء معقد يحمل في طياته بذور التيه، بل قد تكون أحد محركاته في عصرنا الحالي. وكما قال المفكر مارشال ماكلوهان: "الوسيلة هي الرسالة"، مشيرًا إلى أن طبيعة الوسيلة نفسها تؤثر على المحتوى الذي تنقله وعلى المتلقي.

فكيف يمكن أن تساهم وسائل التواصل الاجتماعي في تعميق هذا التيه؟ تتعدد الآليات. فهي أولاً قد تعزز السطحية والمظهرية. تركز هذه المنصات بطبيعتها على الصورة والمظهر واللحظات الخاطفة. منصات مثل "إنستغرام" و"تيك توك" تحتفي باللحظات "المثالية" المصطنعة، بالوجوه المفلترة، بالحياة الفاخرة (حتى لو كانت وهمًا). هذا قد يدفع المستخدمين، من مختلف الأعمار، إلى التركيز المفرط على القشور، والاهتمام بالمظهر، والسعي لخلق صورة غير واقعية عن أنفسهم. قد تصبح القيمة مرتبطة بعدد الإعجابات والمتابعين، وليس

بالجودة الفعلية للشخصية أو الأفكار. يتم اختزال الأفكار المعقدة في منشورات قصيرة أو فيديوهات سريعة، مما قد يضعف القدرة على التحليل النقدي والتفكير العميق. نرى بوضوح كيف يتسابق المؤثرون العرب، خاصة في الخليج، لعرض أسلوب حياتهم الباذخ ورحلاتهم الفاخرة، مما يخلق معايير غير واقعية للنجاح والسعادة لدى متابعيهم.

ثانيًا، قد تعمل هذه المنصات على تغذية المقارنات الاجتماعية السلبية. عندما نكون محاطين بصور تعرض حياة الآخرين "المثالية" (رحلاتهم، ممتلكاتهم، نجاحاتهم الظاهرية)، فمن الطبيعي أن نبدأ بمقارنة حياتنا العادية بحياتهم الاستثنائية (كما تبدو). هذه المقارنات غالبًا ما تكون غير عادلة، لأننا نقارن واقعنا بـ "هايلايتس" منتقاة من حياة الآخرين. لكنها قد تؤدي إلى الشعور بالنقص، والحسد، وعدم الرضا عن الذات، والقلق الاجتماعي، وقد تصل إلى الاكتئاب. نجد أنفسنا أحيانًا في سباق وهمي

للحاق بالآخرين، مما يفقدنا القدرة على الاستمتاع بما لدينا والتركيز على مسارنا الخاص.

ثالثًا، قد تساهم وسائل التواصل في خلق فقاعات معلوماتية وعزلة فكرية. تعتمد خوارزمياتها على عرض المحتوى الذي يتوافق مع اهتماماتنا وآرائنا السابقة. هذا يخلق "فقاعات مرشحات" أو "غرف صدى"، حيث لا نتعرض إلا للآراء التي تؤكد قناعاتنا، وننعزل عن وجهات النظر المختلفة. هذا يعزز الاستقطاب، ويضعف القدرة على فهم الآخر وتقبل الاختلاف، ويجعلنا أكثر عرضة للتضليل والأخبار الزائفة. في سياق الربيع العربي وما تلاه، لاحظنا كيف ساهمت هذه الفقاعات في تعزيز الانقسامات المجتمعية، حيث يميل كل طرف إلى تصديق الأخبار التي تؤيد وجهة نظره فقط.

رابعًا، قد تعتبر هذه المنصات مضيعة للوقت ومشتتًا للانتباه. تصميمها قائم على جذب انتباهنا وإبقائنا مدمنين

عليها. الإشعارات المستمرة، خاصية التمرير اللانهائي، المحتوى المتجدد...، كلها أدوات تجعلنا نقضي ساعات طويلة في تصفح محتوى غالبًا ما يكون قليل الفائدة. هذا الوقت الثمين يُقتطع من أنشطة أكثر أهمية: من التواصل الحقيقي مع الأسرة والأصدقاء، من القراءة والتعلم، من ممارسة الرياضة، من العمل المنتج، وحتى من العبادة والتأمل. وقد أظهرت دراسات عديدة أن متوسط الوقت الذي يقضيه الشباب العربي على وسائل التواصل الاجتماعي يتجاوز عدة ساعات يوميًا، مما يؤثر سلبًا على إنتاجيتهم وصحتهم النفسية.

خامسًا، قد تساهم هذه المنصات في نشر التفاهة وتطبيع بعض الانحرافات. للأسف، المحتوى التافه أو السطحي أو المثير للغرائز قد يكون هو الأكثر رواجًا لأنه يحصد مشاهدات أعلى. نرى أشخاصًا يحققون شهرة وثروات من خلال تقديم محتوى فارغ أو استفزازي أو حتى منحرف أخلاقيًا. هذا يؤدي إلى خلل في منظومة القيم،

حيث قد يبدو أن النجاح لا يتطلب جهدًا أو علمًا، بل يكفي الجرأة على كسر الحواجز الأخلاقية. يتم تدريجيًا تطبيع سلوكيات وأفكار كانت تعتبر مشينة. مثال على ذلك، انتشار ظاهرة "اليوتيوبرز" و"التيكتوكرز" الذين يقدمون محتوى لا قيمة له سوى الترفيه السطحي، ويحققون من خلاله شهرة وثراءً، مما يرسخ فكرة أن التفاهة يمكن أن تكون طريقًا للنجاح، ويدفع الشباب إلى محاكاتهم.

سادسًا، يوفر العالم الافتراضي ستارًا من عدم الكشف عن الهوية يشجع البعض على ممارسة التنمر الإلكتروني وانتهاك الخصوصية. يصبح من السهل توجيه الإساءات والشتائم، ونشر الشائعات، وانتهاك خصوصيات الآخرين دون خوف من العواقب المباشرة. هذا يخلق بيئة رقمية سامة ومؤذية. وقد أشار المفكر عبد الوهاب المسيري في تحليلاته إلى أزمة الإنسان المعاصر وفقدانه للمعنى في ظل سيطرة النماذج المادية والتقنية، وهو ما يتجلى بوضوح في سلوكيات التنمر الرقمي.

هل يعني هذا أن وسائل التواصل الاجتماعي شر مطلق؟ بالطبع لا. فهي أدوات محايدة تحمل إمكانيات إيجابية هائلة. لكن المشكلة تكمن في طريقة استخدامنا لها، وفي عدم وعينا الكافي بتأثيراتها، وفي استسلامنا السلبي لخوارزمياتها. لقد تحولت بالنسبة للكثيرين من أداة نتحكم فيها، إلى قوة قد تتحكم فينا، تقودنا في دروب التيه دون أن نشعر.

سطوة الاستهلاك: عندما يصبح الشراء هوية

إذا كانت وسائل التواصل الاجتماعي قد تكون الوقود الذي يغذي محرك التيه، فإن ثقافة الاستهلاك المفرط قد تكون هي المحرك نفسه. نحن نعيش في مجتمع يتأثر بشدة بالنزعة الاستهلاكية، مجتمع قد يحوّل عملية الشراء من مجرد وسيلة لتلبية الاحتياجات، إلى هدف بحد ذاته، بل إلى هوية نعبر بها عن أنفسنا ونحدد مكانتنا.

قد لا يكون السؤال الجوهري دائمًا "من أنا؟" بقدر ما يصبح "ماذا أملك؟". قيمة الأفراد قد تُقاس أحيانًا بما يرتدونه من علامات تجارية، بنوع السيارة، بأحدث هاتف. قد نعرّف أنفسنا والآخرين من خلال ممتلكاتنا، ونبحث عن السعادة في اقتناء المزيد، حتى لو لم نكن بحاجة حقيقية، وحتى لو كان ذلك على حساب قيم أهم أو استقرارنا المالي. وكما قال الفيلسوف إريك فروم في كتابه "أن تملك أو أن تكون؟": **"كلما زاد ما نملكه، قل ما نكونه".**

كيف ترسخت سطوة الاستهلاك بهذا الشكل؟ هناك عدة عوامل. أولاً، الإعلانات والقصف المستمر الذي نتعرض له. هذه الإعلانات لا تبيعنا منتجات فقط، بل تبيعنا أحلامًا ووهمًا بالسعادة والجاذبية والنجاح. تربط بمهارة بين المنتج وبين مشاعر ورغبات عميقة داخلنا، فتجعلنا نعتقد أن شراء هذا المنتج سيحقق لنا ما نصبو إليه. على سبيل المثال، نرى إعلانات في القنوات الفضائية تروج لمنتجات التجميل أو السيارات الفاخرة، وتربطها مباشرة بمفاهيم

السعادة والنجاح الاجتماعي، مما يدفع المستهلك إلى الربط اللاواعي بين هذه المنتجات وتحقيق الذات.

ثانيًا، تساهم ثقافة "الترند" والتجديد المستمر في تغذية هذا النهم. تدفعنا الشركات نحو التجديد والتحديث، سواء في التكنولوجيا أو الموضة. يتم إقناعنا بأن ما نملكه أصبح قديمًا، وأننا بحاجة للتحديث لنبقى مقبولين ومواكبين للعصر. هذا يخلق دورة لا تنتهي من الاستهلاك، ويجعلنا نشعر بعدم الرضا الدائم بما لدينا.

ثالثًا، لعبت سهولة الاقتراض والشراء بالتقسيط دورًا كبيرًا. القروض الاستهلاكية، بطاقات الائتمان، عروض التقسيط...، كلها تغرينا بالإنفاق حتى لو لم نكن نملك المال، مما يوقع الكثيرين في فخ الديون. في العديد من الدول العربية، أصبحت عروض التقسيط الميسرة للهواتف الذكية والأجهزة الإلكترونية منتشرة بشكل كبير، مما يشجع على الشراء غير المخطط له.

رابعًا، قد يلجأ البعض إلى الاستهلاك كتعويض عن الفراغ الروحي والمعنوي. في زمن التيه وفقدان المعنى، قد يصبح الشراء نوعًا من التعويض النفسي المؤقت. عملية الشراء تمنح شعورًا مؤقتًا بالسعادة، بالسيطرة، بالإنجاز. نشتري أحيانًا لنشعر بأننا أفضل، لننسى همومنا، لنملأ فراغًا روحيًا لا يمكن للمادة أن تملأه حقًا. إنه أشبه بمسكن للألم، يخفف الأعراض مؤقتًا، لكنه لا يعالج المرض الأساسي. وقد أشار المفكر علي عزت بيجوفيتش في "الإسلام بين الشرق والغرب" إلى أن المادية المفرطة هي أحد أسباب الشقاء الإنساني.

تأثير هذا الإفراط في الاستهلاك قد يكون مدمرًا. إنه يعزز المادية الطاغية، حيث تصبح القيم المادية هي العليا. يغذي الأنانية والجشع وحب التملك. ويؤدي إلى تآكل العلاقات الإنسانية الحقيقية، حيث قد يتم استغلال الآخرين أو إهمالهم في سبيل تحقيق مكاسب مادية. بالإضافة إلى ذلك، فإن لهذا الاستهلاك المفرط آثارًا بيئية كارثية،

من خلال استنزاف الموارد الطبيعية وتوليد كميات هائلة من النفايات التي تهدد كوكبنا.

إنه عالم معقد نعيش فيه، تتشابك فيه الخيوط وتتداخل التأثيرات. وسائل التواصل الاجتماعي وثقافة الاستهلاك ليستا سوى وجهين بارزين لعملة التيه التي نتعامل بها يوميًا. فهم هذه الآليات وتأثيراتها هو خطوة أولى ضرورية، لكنها ليست كافية. فما هي الجذور الأعمق لهذه الأزمة؟ وكيف يمكننا أن نبدأ في البحث عن مخرج؟ هذا ما سنحاول استكشافه في الفصول التالية.

إن هذا التشخيص الأولي لواقعنا ليس دعوة لليأس، بل هو دعوة للتأمل الواعي، لكي ندرك أين نقف، وما هي التحديات الحقيقية التي تواجهنا، تمهيدًا للبحث عن سبل الخروج من هذا التيه. وكما قال الفيلسوف ابن خلدون في مقدمته: "إذا فسدت الأمة في أخلاقها، فسدت في عمرانها"

الفصل الثاني

أصول الأزمة

"لا يمكنك حل مشكلة بنفس العقلية التي أوجدتها" - ألبرت أينشتاين

في الفصل السابق، تجولنا في أروقة "زمن التيه"، لامسنا جدرانه الباردة، وشاهدنا بأعيننا الشروخ التي تتسع في بنيانه. وصفنا الواقع بألوانه الباهتة، ورصدنا مظاهر الانحطاط التي تتسلل إلى حياتنا اليومية، مشيرين بأصابع الاتهام إلى الدور المعقد لوسائل التواصل وسطوة الاستهلاك. ولكن، هل يكفي مجرد الوصف لتشخيص الداء؟ لكي نفهم حقًا عمق الأزمة التي نعيشها، ولكي نتمكن من إيجاد طريق للخروج منها، لا بد أن نغوص أعمق، أن نحفر تحت السطح بحثًا عن الجذور. فالسؤال الذي يفرض نفسه بإلحاح هو: كيف وصلنا إلى هنا؟ ما هي العوامل التي مهدت لهذا الانهيار القيمي والأخلاقي؟ وكيف بدأت البوصلة تفقد اتجاهها في مجتمعاتنا؟

هذا الفصل هو رحلة استكشافية في طبقات الماضي والحاضر، محاولة لتفكيك الآليات المعقدة التي أوصلتنا إلى ما نحن عليه. لن نبحث عن كبش فداء واحد، فالمسؤولية مشتركة والأسباب متداخلة. سنحاول، بتجرد وموضوعية قدر الإمكان، أن نتتبع خيوط المشكلة، بدءًا من التحولات التاريخية الكبرى، مرورًا بالعوامل الاجتماعية والاقتصادية، وصولًا إلى دور مؤسسات التنشئة الأساسية كالأسرة والمدرسة، وتأثير الإعلام والثقافة الوافدة. إن فهم هذه الجذور ليس مجرد ترف فكري، بل هو الخطوة الأساسية ليس فقط لتشخيص المرض بدقة، بل لوصف العلاج المناسب الذي يمكن أن يعيد لمجتمعاتنا توازنها.

البحث عن الجذور: حفر في تربة الماضي

من البديهي أن ندرك أن أي انهيار، سواء كان ماديًا أو قيميًا، لا يحدث فجأة. إنه نتيجة لتراكمات طويلة، لتصدعات صغيرة تتسع مع مرور الوقت حتى يصبح البنيان هشًا وقابلاً

للسقوط عند أول هزة. والانهيار القيمي الذي نشهده اليوم ليس استثناءً. فجذوره تمتد عميقًا في تربة تاريخنا الحديث وتحولات مجتمعاتنا المتسارعة، وتتغذى من عوامل متعددة ومتشابكة.

1. العوامل التاريخية: إرث ثقيل وتحولات مربكة

لا يمكن فهم حاضر مجتمعاتنا العربية، دون العودة إلى الوراء قليلًا، إلى تلك المنعطفات التاريخية الكبرى التي شكلت وعينا وهويتنا وتركت بصماتها العميقة على منظومتنا القيمية. في هذا السياق، تبرز الحقبة الاستعمارية كعامل محوري. لقد شكلت صدمة حضارية عنيفة، لم تكن مجرد احتلال عسكري وسياسي، بل امتدت لتكون محاولة لفرض نموذج ثقافي وقيمي غريب وتفكيك البنى الاجتماعية التقليدية الراسخة. فالمؤسسات المحلية، كالتعليم التقليدي الأصيل والأوقاف وأنظمة التكافل الاجتماعي التي كانت تمثل شبكة أمان للمجتمع، تعرضت

للإضعاف الممنهج، بينما فُرضت لغة وثقافة المستعمر، وزُرعت بذور الشك والريبة في الهوية والتراث الوطني. وعندما حان وقت الاستقلال، وجدت هذه المجتمعات نفسها أمام تحدي بناء الدولة الحديثة، لكنها كانت ممزقة بين رغبة جامحة في اللحاق بركب الحداثة الغربية وبين ضرورة ملحة للحفاظ على هويتها وقيمها الأصيلة. هذا التمزق العميق أفضى إلى حالة من الازدواجية الثقافية والقيمية، وإلى تبني نماذج تنموية هجينة غالبًا ما كانت تفتقر إلى الأصالة والتماسك الداخلي، كما أفرز نخبًا جديدة، غالبًا ما كانت متأثرة بالغرب ثقافيًا وفكريًا، مما أدى إلى فقدان تواصلها مع القاعدة الشعبية وقيمها المتجذرة.

إلى جانب ذلك، لا يمكن إغفال فشل مشاريع النهضة والتنمية التي عُلقت عليها آمال عريضة بعد الاستقلال لتحقيق التقدم والوحدة. هذه المشاريع، ولأسباب داخلية وخارجية معقدة ومتشابكة، غالبًا ما تعثرت أو أخفقت في

تحقيق أهدافها المعلنة، مما ولّد شعورًا عامًا بالإحباط وخيبة الأمل العميقة، وأدى إلى فقدان الثقة في القيادات وفي جدوى المشاريع الكبرى. وعندما تفشل المشاريع الجماعية وتتبدد الأحلام الكبرى، يميل الأفراد بشكل طبيعي إلى الانكفاء على ذواتهم، والبحث عن الخلاص الفردي، وتغليب المصلحة الخاصة الضيقة على المصلحة العامة، وهذا الانكفاء الفردي يضعف بدوره الروابط الاجتماعية ويفتح الباب على مصراعيه أمام تغلغل قيم الفردانية والمادية التي تتعارض مع روح الجماعة والتكافل.

علاوة على ما سبق، فإن التحولات السياسية وغياب المشاركة الشعبية الفاعلة لعبت دورًا لا يستهان به. فقد شهدت العديد من الدول العربية فترات طويلة من عدم الاستقرار السياسي، وغياب الممارسات الديمقراطية الحقيقية، وضعف المشاركة الشعبية في صنع القرار ورسم السياسات. وعندما يشعر المواطن بأنه مهمش ومستبعد، وأن صوته غير مسموع، وأن القوانين لا تطبق على الجميع

بعدالة ومساواة، فإنه يفقد تدريجيًا شعوره بالانتماء والولاء لمجتمعه ودولته. وهذا الفقدان للانتماء يؤدي حتمًا إلى حالة

من اللامبالاة والسلبية، وإلى البحث المحموم عن تحقيق المصالح الشخصية حتى لو كان ذلك على حساب القانون أو الأخلاق العامة. تنتشر بذلك ثقافة "السيبة"، وتتراجع قيم المواطنة الصالحة والمسؤولية الجماعية التي هي أساس بناء أي مجتمع قوي ومتماسك.

بناءً على ما تقدم، يمكن القول إن هذه العوامل التاريخية مجتمعة، بتعقيداتها وتداخلاتها وتأثيراتها المتراكمة، خلقت تربة خصبة لنمو العديد من المشاكل القيمية التي نعاني منها اليوم. لقد تركت وراءها إرثًا ثقيلًا من التمزق الهوياتي، والإحباط الجماعي، وضعف الثقة في المؤسسات وفي المستقبل، مما سهل بشكل كبير

عملية تآكل القيم الأصيلة وتغلغل قيم بديلة غالبًا ما تكون سلبية ومدمرة.

2. العوامل الاجتماعية والاقتصادية: ضغوط الحياة وتغير الأولويات

بالانتقال إلى مستوى آخر من التحليل، نجد أن العوامل التاريخية تتفاعل بشكل وثيق ومستمر مع التحولات الاجتماعية والاقتصادية المتسارعة التي شهدتها مجتمعاتنا في العقود الأخيرة، لتزيد من تعقيد المشهد وتعميق الأزمة القيمية. فالتحضر السريع، الناتج عن الهجرة الكثيفة من القرى إلى المدن بحثًا عن فرص أفضل للحياة، أدى إلى تحولات اجتماعية جذرية. المدن الكبرى، بأضوائها البراقة وإغراءاتها اللامتناهية، غالبًا ما تكون بيئة تذوب فيها الروابط الاجتماعية التقليدية، مثل روابط القرابة والجوار المتينة، التي كانت تشكل شبكة أمان وضبط اجتماعي فعالة في المجتمعات القروية. يجد المهاجر نفسه فجأة في بيئة مجهولة وغريبة، يواجه ضغوطًا اقتصادية واجتماعية هائلة، ويفتقد إلى الدعم والسند المعنوي والمادي الذي كان يجده في مجتمعه الأصلي.

هذا الشعور العميق بالضياع والاغتراب في المدينة الكبيرة قد يدفع البعض، في محاولة يائسة للتكيف أو البقاء، إلى تبني سلوكيات وقيم تتعارض بشكل صارخ مع ما تربى عليه من مبادئ وأخلاق.

ومما يزيد من حدة هذه الضغوط، الفوارق الاجتماعية الصارخة. فمجتمعاتنا تعاني من تفاوت كبير في توزيع الثروة والدخل، حيث تتمتع فئة قليلة بالثراء الفاحش ومظاهر البذخ المبالغ فيه، بينما تعيش فئات واسعة من السكان في حالة من الفقر أو الهشاشة الاقتصادية المقلقة. هذا التفاوت الصارخ يولد شعورًا عميقًا بالظلم والحرمان، ويغذي مشاعر الحقد الاجتماعي والحسد. وقد يدفع هذا الشعور البعض إلى الانخراط في سلوكيات غير أخلاقية، كالسرقة أو الاحتيال أو الفساد، كمحاولة لتحقيق "النجاح" المادي الذي يرونه عند الآخرين ويعتبرونه المعيار الوحيد للقيمة في المجتمع. كما أن ثقافة الاستهلاك والمظاهر، التي يروج لها الإعلام بقوة، تزيد من حدة هذا

الشعور بالإحباط لدى الفئات المحرومة، التي تجد نفسها عاجزة عن مواكبة متطلبات هذا النمط من الحياة الباذخة والمكلفة.

ولا يقل أهمية عن ذلك، شبح البطالة وصعوبة تحقيق الذات ليعمق جراح الشباب بشكل خاص. فهم يعانون من صعوبة إيجاد فرص عمل لائقة تتناسب مع مؤهلاتهم وطموحاتهم، مما يولد لديهم شعورًا بعدم الجدوى وبعدم القدرة على بناء مستقبل مستقر وتحقيق ذواتهم. هذا الإحباط واليأس قد يدفع البعض إلى الانحراف أو إلى تبني قيم سلبية كاللامبالاة أو العدوانية. فعندما يشعر الشاب بأن المجتمع لا يوفر له الفرص التي يستحقها، وأنه مهمش ومستبعد، فقد يفقد إيمانه بقيم العمل الجاد والمثابرة والصبر، ويبدأ في البحث عن طرق مختصرة وسهلة، حتى لو كانت غير مشروعة، لتحقيق أهدافه المادية أو للحصول على الاعتراف الاجتماعي.

وفي سياق متصل، لم تسلم بنية الأسرة وأدوارها من هذه التحولات العاصفة. فالأسرة الممتدة التقليدية تفسح المجال تدريجيًا للأسرة النووية الصغيرة. كما أن خروج المرأة المتزايد للعمل، وهو تطور إيجابي في حد ذاته يعكس تحررها وسعيها لتحقيق ذاتها، أدى إلى تغير في توزيع الأدوار داخل الأسرة. لكن هذا التغير لم يواكبه دائمًا تطور موازٍ في العقليات أو توفير للدعم المؤسسي اللازم، مثل توفير دور حضانة ذات جودة عالية وبأسعار معقولة. وهذا يضع ضغوطًا إضافية على الأسرة، ويقلل من الوقت النوعي الذي يقضيه الوالدان مع الأبناء، مما قد يؤثر سلبًا على عملية التنشئة الاجتماعية السليمة وغرس القيم والمبادئ الأساسية في نفوس الأجيال الصاعدة.

وكنتيجة حتمية لكل هذه الضغوط الاقتصادية وانتشار ثقافة الاستهلاك، ترسخت ثقافة الربح السريع والمادة وأصبحت تحتل مكانة مركزية في حياة الكثيرين. فالنجاح أصبح يُقاس بشكل أساسي بالمال والثروة المادية، بغض

النظر عن مصدرها أو طريقة الحصول عليها. تنتشر بذلك ثقافة "الغاية تبرر الوسيلة" الخطيرة، وتتراجع قيم الأمانة والنزاهة والعمل المتقن أمام الرغبة المحمومة في تحقيق الربح السريع بأي طريقة ممكنة. وهذا يفسر جزئيًا، وإن لم يكن كليًا، انتشار ظواهر الفساد والغش والممارسات غير الأخلاقية في مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

في المحصلة، إن هذه العوامل الاجتماعية والاقتصادية المتشابكة تخلق بيئة ضاغطة وصعبة للغاية، تجعل التمسك بالقيم الأخلاقية تحديًا حقيقيًا للكثيرين. فعندما تكون الأولويات الأساسية هي مجرد البقاء وتأمين لقمة العيش اليومية، قد تبدو القيم الأخلاقية والمبادئ السامية ترفًا لا يمكن تحمله أو رفاهية لا وقت لها.

3. أزمة التعليم: فشل في بناء الإنسان قبل المكان

بالانتقال إلى أحد أهم أركان بناء المجتمع، تعتبر المنظومة التعليمية حجر الزاوية في بناء أي مجتمع وتشكيل قيمه وأخلاقياته، فهي ليست مجرد ناقل للمعارف والمهارات، بل هي بالأساس ورشة لبناء شخصية الإنسان المتوازنة، القادرة على التفكير النقدي، والمتمسكة بالقيم الإنسانية النبيلة. لكن، للأسف الشديد، يبدو أن منظومتنا التعليمية في العالم العربي، وفي المغرب على وجه الخصوص، تعاني من أزمة عميقة متعددة الأوجه تجعلها قاصرة عن أداء هذا الدور المحوري، بل وربما تساهم أحيانًا، عن قصد أو غير قصد، في تعميق أزمة القيم التي نتحدث عنها.

ولعل أبرز مظاهر هذه الأزمة هو التركيز المفرط على التلقين والحفظ على حساب الفهم والتفكير النقدي. فغالبًا ما تركز مناهجنا وطرق تدريسنا التقليدية على حشو

أذهان التلاميذ بكم هائل من المعلومات والمعارف الجاهزة، وتشجيعهم على الحفظ والاستظهار بهدف وحيد هو اجتياز الامتحانات والحصول على الشهادات. في المقابل، يتم إهمال تنمية المهارات الأساسية للقرن الحادي والعشرين، مثل مهارات التفكير النقدي، والتحليل، والإبداع، وحل المشكلات، والتواصل الفعال. وهذا النوع من التعليم ينتج أجيالًا غير قادرة على التمييز بين الغث والسمين، وسهلة الانقياد للأفكار المتطرفة أو السطحية الشائعة، وغير قادرة على تكوين رأي مستقل ومبني على أسس منطقية وعلمية سليمة.

كما أننا نعاني من ضعف واضح في التربية على القيم والمواطنة. فعلى الرغم من وجود مواد أو برامج دراسية مخصصة للتربية الإسلامية أو التربية على المواطنة وحقوق الإنسان، إلا أنها غالبًا ما تُقدم بطريقة نظرية جافة ومملة، بعيدة كل البعد عن واقع التلاميذ واهتماماتهم الحقيقية. لا يتم التركيز بشكل كافٍ وممنهج على تحويل

القيم النبيلة، كالصدق والأمانة والتسامح واحترام الاختلاف والمسؤولية الفردية والجماعية، إلى سلوكيات عملية وممارسات يومية ملموسة داخل فضاء المدرسة وخارجه. وهكذا، تظل القيم مجرد شعارات براقة تُرفع في المناسبات، أو نصوص تُحفظ للاختبار، دون أن تتجسد في واقع سلوكي ملموس يغير من حياة الفرد والمجتمع.

يضاف إلى ذلك، تراجع دور المعلم كقدوة تربوية شاملة. فبعد أن كان المعلم في الماضي يحظى بمكانة اجتماعية مرموقة واحترام كبير، وكان يُعتبر قدوة لتلاميذه في علمه وسلوكه وأخلاقه، نجد اليوم أن أوضاعه المادية والمعنوية قد تدهورت بشكل كبير، وتراجعت مكانته في المجتمع، مما يجعل من الصعب على الكثيرين منهم أن يقوموا بهذا الدور التربوي الشامل الذي يتجاوز مجرد نقل المعلومات. يضاف إلى ذلك ضعف التكوين الأساسي والمستمر للمعلمين في مجال التربية على القيم، وفي

كيفية التعامل مع تحديات العصر الرقمي وتأثيراته على سلوكيات التلاميذ وقيمهم.

ولا يمكن إغفال تأثير البيئة المدرسية التي غالبًا ما تكون غير جاذبة وغير محفزة. فالكثير من مدارسنا تعاني من الاكتظاظ الشديد، ونقص التجهيزات الأساسية، وضعف البنية التحتية. هذه البيئة المادية والمعنوية غير الجاذبة لا تشجع على التعلم والإبداع، بل قد تساهم في انتشار سلوكيات سلبية مثل العنف المدرسي بأشكاله المختلفة، والغش، واللامبالاة، والتسرب المدرسي. لم تعد المدرسة، في كثير من الأحيان، ذلك الفضاء المحبب الذي يجد فيه التلميذ ذاته ويكتشف مواهبه وينمي قدراته، بل أصبحت مكانًا يقضي فيه ساعات طويلة من الملل والإحباط والشعور بعدم الجدوى.

وأخيرًا، تبرز الفجوة الكبيرة بين مخرجات التعليم ومتطلبات سوق الشغل كأحد التحديات الكبرى. فخريجو

نظامنا التعليمي يعانون غالبًا من صعوبة الاندماج في سوق الشغل، إما بسبب عدم ملاءمة تكوينهم النظري لاحتياجات السوق المتغيرة باستمرار، أو بسبب ضعف المهارات الحياتية والعملية لديهم (مثل مهارات التواصل، والعمل الجماعي، وحل المشكلات، والمبادرة). وهذا يزيد من تفاقم مشكلة البطالة لدى الشباب، ويعمق شعورهم بالإحباط وعدم الجدوى، ويدفعهم نحو مسارات قد تكون خطيرة على مستقبلهم ومستقبل المجتمع، كما ذكرنا سابقًا.

في الختام، إن أزمة التعليم، في جوهرها، ليست مجرد أزمة معرفية أو بيداغوجية، بل هي في العمق أزمة قيمية وأخلاقية بامتياز. فعندما تفشل المدرسة في بناء الإنسان قبل بناء الجدران، وعندما تعجز عن غرس القيم الصحيحة وتنمية التفكير النقدي المستقل، فإنها تترك فراغًا هائلاً

في شخصية النشء[1] يسهل ملؤه لاحقًا بالتطرف أو بالسطحية أو بالانحراف. لذلك، فإن إصلاح منظومة التعليم، إصلاحًا جذريًا وشاملاً يركز على بناء الإنسان وتنمية قيمه ومهاراته، يجب أن يكون على رأس أولويات أي مشروع جاد للخروج من زمن التيه وبناء مستقبل أفضل.

4. دور الأسرة المتغير: تراجع الحصن الأول

وإذا كانت المدرسة هي المؤسسة الثانية في عملية التنشئة الاجتماعية وغرس القيم، فإن الأسرة تظل هي الحصن الأول والأساسي، هي الخلية الأولى التي تتشكل فيها نواة شخصية الطفل وقيمه ومبادئه الأساسية. لكن هذا الحصن الأول، كما أشرنا سابقًا، يتعرض هو الآخر لتحديات كبيرة وتغيرات عميقة في بنيته ووظائفه، مما

[1] **شخصية النشء** هي مجموعة من الصفات والسلوكيات والعواطف المميزة التي تميز كل فرد في مرحلة النمو.

أضعف من دوره التقليدي المحوري في غرس القيم وتوجيه الأبناء نحو المسار الصحيح.

فمن أبرز هذه التحديات، ضغوط الحياة العصرية المتزايدة. يواجه الآباء والأمهات اليوم ضغوطًا اقتصادية واجتماعية ونفسية هائلة. فساعات العمل الطويلة والمضنية، وصعوبة التوفيق بين متطلبات العمل والحياة الأسرية، والقلق المستمر بشأن تأمين متطلبات الحياة وتكاليفها المتزايدة، والقلق على مستقبل الأبناء في ظل واقع معقد وغير مستقر، كلها عوامل تستنزف طاقة الوالدين وتقلل من الوقت النوعي والجودة المتاحين للتواصل الحقيقي والفعال مع الأبناء، ولمتابعة شؤونهم التربوية والدراسية عن كثب. وهكذا، قد يتحول الآباء، دون أن يشعروا، إلى مجرد "ممولي احتياجات" مادية، أكثر من كونهم مربين وموجهين روحيين وأخلاقيين لأبنائهم.

إضافة إلى ذلك، تزيد الفجوة الرقمية والثقافية بين الأجيال من تعقيد مهمة الوالدين. فالأبناء اليوم يعيشون في عالم رقمي افتراضي يختلف كليًا عن العالم الذي نشأ فيه آباؤهم. يتحدثون لغة مختلفة، ويستخدمون تقنيات متطورة، ويهتمون بأمور قد تبدو غريبة أو تافهة للآباء، ويتعرضون لمؤثرات ثقافية وقيمية متنوعة ومتناقضة أحيانًا عبر الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي. يجد الكثير من الآباء صعوبة كبيرة في فهم هذا العالم الجديد والمعقد، وفي التواصل الفعال مع أبنائهم حول تحدياته ومخاطره وفرصه. قد يشعر الآباء بالعجز أو يفقدون السيطرة على أبنائهم، بينما يشعر الأبناء بأن آباءهم لا يفهمونهم، أو يتدخلون في خصوصياتهم بشكل مبالغ فيه، أو يفرضون عليهم قيمًا يعتبرونها متجاوزة.

كما أننا نشهد تراجعًا ملحوظًا للسلطة الوالدية التقليدية. فلم تعد السلطة القائمة على الأمر والنهي والخوف والعقاب الجسدي فعالة كما كانت في السابق،

بل قد تأتي بنتائج عكسية. فالأبناء اليوم، بفعل تأثير الإعلام والتعليم والانفتاح على العالم، أصبحوا أكثر وعيًا بحقوقهم، وأكثر قدرة على التعبير عن آرائهم، وأكثر تمردًا على السلطة التقليدية التي لا تقنعهم. وهذا يتطلب من الآباء تبني أساليب تربوية جديدة وحديثة، قائمة على الحوار الصريح، والإقناع المنطقي، وبناء علاقة متينة من الثقة والاحترام المتبادل مع الأبناء. لكن الكثير من الآباء يفتقرون إلى هذه المهارات التربوية الحديثة، أو يتمسكون بالأساليب القديمة التي لم تعد تجدي نفعًا في التعامل مع جيل اليوم.

ومن أخطر التحديات التي تواجه دور الأسرة، غياب القدوة الحسنة داخلها أحيانًا. ففي بعض الحالات، يكون الآباء أنفسهم هم من يمارسون سلوكيات تتعارض بشكل صارخ مع القيم التي يحاولون غرسها في أبنائهم. قد يكذبون، أو يغشون، أو لا يحترمون الآخرين، أو يتحدثون بسوء عن الغائبين. والطفل، كما هو معروف، يتعلم

بالقدوة والمحاكاة أكثر بكثير مما يتعلم بالتلقين والنصائح المجردة. فعندما يرى الطفل هذا التناقض الصارخ بين ما يقوله والداه وما يفعلانه، فإنه يفقد الثقة بهما وبمنظومة القيم التي يمثلانها، ويصاب بالارتباك والتشويش القيمي.

وأخيرًا، لا يمكن إغفال التأثير المتزايد للأقران ووسائل الإعلام. فلم تعد الأسرة هي المصدر الوحيد أو حتى الأساسي للقيم والمعلومات بالنسبة للطفل والمراهق كما كانت في الماضي. أصبح للأصدقاء (الأقران) ولوسائل الإعلام المختلفة (بما فيها الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي والألعاب الإلكترونية) تأثير كبير جدًا على تشكيل أفكارهم وقيمهم وسلوكياتهم، قد يفوق تأثير الأسرة في بعض الأحيان. وهذا يجعل مهمة الآباء في التوجيه والرقابة والتأثير الإيجابي أكثر صعوبة وتعقيدًا من أي وقت مضى.

في ضوء ما سبق، إن تراجع دور الأسرة في التربية القيمية يترك فراغًا خطيرًا في بناء شخصية النشء. فالقيم الأساسية التي لا يتم غرسها وتثبيتها في سن مبكرة داخل الأسرة، يصعب تعويضها أو تعديلها لاحقًا. فضعف الرقابة الأسرية الواعية، وغياب الحوار والتواصل الفعال، وفقدان القدوة الحسنة، كلها عوامل تساهم بشكل مباشر في زيادة احتمالات انحراف الأبناء وتبنيهم لقيم وسلوكيات سلبية قد تدمر مستقبلهم ومستقبل المجتمع.

5. تأثير الإعلام والثقافة الوافدة: غزو ناعم للعقول والقيم

بالانتقال إلى عامل آخر ذي تأثير بالغ الأهمية في تشكيل وعي الأفراد وقيمهم، لا يمكننا أن نغفل الدور المتعاظم لوسائل الإعلام، بمختلف أشكالها التقليدية والحديثة، في صياغة الرأي العام وتوجيه السلوكيات. ففي عصرنا الحالي، أصبح الإعلام ليس مجرد مرآة تعكس الواقع،

بل هو قوة فاعلة تسهم في تشكيله، وتفرض أجندات معينة، وتضخ قيمًا وأفكارًا قد تتعارض مع قيم مجتمعاتنا الأصيلة. إننا أمام ما يمكن تسميته بـ "الغزو الناعم" للعقول والقيم، الذي لا يعتمد على القوة العسكرية، بل على قوة الصورة والكلمة والمحتوى الجذاب.

من أبرز مظاهر هذا التأثير، انتشار المحتوى السطحي والترفيهي على حساب المحتوى الهادف والعميق. فوسائل التواصل الاجتماعي، على سبيل المثال، التي أصبحت جزءًا لا يتجزأ من حياة الملايين، تعج بمقاطع الفيديو القصيرة، والصور الجذابة، والتحديات التافهة، التي تهدف في المقام الأول إلى جذب الانتباه وتحقيق أكبر عدد من المشاهدات والتفاعلات. هذا النوع من المحتوى، وإن بدا بريئًا في ظاهره، إلا أنه يساهم في تخدير العقول، وتسطيح التفكير، وتكريس ثقافة الاستهلاك السريع للمعلومات والترفيه. يصبح الفرد مدمنًا على الإثارة اللحظية، وغير قادر على التركيز في القضايا الجادة

والعميقة، ويفقد تدريجيًا قدرته على التمييز بين ما هو مهم وما هو تافه. على سبيل المثال، نجد انتشارًا واسعًا لـ "التيكتوكرز" و"اليوتيوبرز" الذين يقدمون محتوى لا قيمة له سوى الترفيه السطحي، ويحققون من خلاله شهرة وثراءً، مما يرسخ فكرة أن التفاهة يمكن أن تكون طريقًا للنجاح، ويدفع الشباب إلى محاكاتهم.

كما أننا نشهد ترويجًا مكثفًا لثقافة الاستهلاك والمظاهر. فالإعلانات التجارية، التي أصبحت جزءًا لا يتجزأ من حياتنا اليومية، لا تكتفي بالترويج للمنتجات والخدمات، بل تروج لنمط حياة معين، قائم على الاستهلاك المفرط، والتفاخر بالممتلكات، والبحث عن السعادة في الماديات. يصبح الفرد مدمنًا على الشراء، ويسعى جاهدًا لمواكبة أحدث صيحات الموضة والتقنية، حتى لو كان ذلك على حساب احتياجاته الأساسية أو على حساب قيم التوفير والاعتدال. ولعل أبرز مثال على ذلك، هو ما نراه في منصات مثل "إنستغرام"، حيث يتسابق المؤثرون لعرض أسلوب

حياتهم الباذخ، من سيارات فارهة وملابس فاخرة ورحلات سياحية مكلفة، مما يخلق ضغطًا نفسيًا على المتابعين للسعي وراء هذه المظاهر، حتى لو كانت إمكانياتهم لا تسمح بذلك، مما يؤدي إلى تفاقم مشكلة الديون والاستدانة، أو إلى اللجوء لأساليب غير مشروعة لتحقيق هذا النمط من الحياة.

ولا يمكن إغفال تأثير الثقافة الوافدة، التي تتدفق علينا بلا حدود عبر الفضائيات وشبكة الإنترنت. ففي ظل غياب مناعة ثقافية قوية، وتراجع دور المؤسسات الوطنية في تعزيز الهوية والقيم الأصيلة، يصبح شبابنا عرضة للتأثر بالثقافات الغربية، التي غالبًا ما تحمل قيمًا تتعارض مع قيمنا الدينية والأخلاقية والاجتماعية. تنتشر بذلك ظواهر مثل الفردانية المفرطة، والتحرر الجنسي، وتفكك الروابط الأسرية، وتراجع قيم الاحترام والتقدير للكبار، وغيرها من القيم التي تهدد نسيج مجتمعاتنا. وقد أشار المفكر المغربي عبد الله العروي في العديد من أعماله إلى

إشكالية التبعية الثقافية وتأثيرها على الهوية العربية المعاصرة، مؤكدًا على ضرورة بناء مشروع نهضوي أصيل ينطلق من الذات.

إضافة إلى ذلك، تساهم وسائل الإعلام في نشر الشائعات والأخبار الكاذبة، وتضخيم القضايا السلبية، مما يؤدي إلى حالة من التشاؤم والإحباط العام، ويزعزع الثقة في المؤسسات وفي المستقبل. كما أنها قد تساهم في تهميش القضايا الجادة والمصيرية، وتوجيه الرأي العام نحو قضايا هامشية أو مفتعلة، مما يصرف الانتباه عن المشاكل الحقيقية التي تواجه المجتمع.

في الختام، إن الإعلام، بسلبياته وإيجابياته، أصبح قوة لا يستهان بها في تشكيل وعي الأفراد وقيمهم. فإذا لم يتم التعامل معه بوعي ونقد، وإذا لم يتم بناء مناعة إعلامية وثقافية قوية لدى الأفراد والمجتمعات، فإنه

سيظل يشكل تهديدًا حقيقيًا لقيمنا وهويتنا، ويسهم في تعميق زمن التيه الذي نعيشه.

في هذا الفصل، حاولنا أن نغوص في أعماق المشكلة، وأن نكشف عن الجذور العميقة للانهيار القيمي والأخلاقي الذي نعيشه. لقد تبين لنا أن الأزمة ليست وليدة اللحظة، وليست ناتجة عن عامل واحد، بل هي محصلة لتراكمات تاريخية، وتفاعلات اجتماعية واقتصادية معقدة، وضعف في مؤسسات التنشئة الأساسية كالأسرة والمدرسة، وتأثير متزايد لوسائل الإعلام والثقافة الوافدة. كل هذه العوامل، بتداخلاتها وتشابكاتها، خلقت بيئة خصبة لتآكل القيم الأصيلة، وتغلغل قيم بديلة غالبًا ما تكون سلبية ومدمرة.

إن فهم هذه الجذور هو الخطوة الأولى نحو العلاج. فإذا لم ندرك أين تكمن المشكلة الحقيقية، وإذا لم نشخص الداء بدقة، فلن نتمكن أبدًا من وصف الدواء المناسب. لقد

أدركنا أن الأزمة قيمية بالأساس، وأنها تتطلب مقاربة شاملة ومتكاملة، لا تكتفي بمعالجة الأعراض، بل تتجاوزها إلى معالجة الأسباب الجذرية.

ولكن، هل يكفي مجرد التشخيص؟ وهل يمكننا أن نكتفي بالبكاء على الأطلال ورصد مظاهر الانحطاط؟ بالتأكيد لا. فبعد

أن أدركنا أين تكمن المشكلة، وأين تكمن جذورها، يصبح السؤال الأكثر إلحاحًا هو: ما العمل؟ كيف يمكننا أن نخرج من هذا التيه؟ وما هي سبل العلاج الممكنة؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه في الفصول القادمة، حيث سننتقل من التشخيص إلى البحث عن الحلول، ومن رصد الداء إلى وصف الدواء، في محاولة جادة للخروج من زمن التيه وبناء مستقبل أفضل لمجتمعاتنا.

الفصل الثالث

فقدان البوصلة

"أن تكون نفسك في عالم يحاول باستمرار أن يجعلك شيئًا آخر، هو أعظم إنجاز" - رالف والدو إمرسون

بعد أن حفرنا في الفصل السابق بحثًا عن جذور الانهيار القيمي والأخلاقي، وتتبعنا الخيوط المتشابكة للعوامل التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والتعليمية والأسرية والإعلامية التي أوصلتنا إلى "زمن التيه"، نصل الآن إلى أحد أكثر تجليات هذا التيه إيلامًا وعمقًا: أزمة الهوية. إذا كانت الفصول السابقة قد وصفت الأعراض الخارجية للمرض وبحثت في أسبابه الكامنة، فإن هذا الفصل سيغوص في قلب الذات، في ذلك السؤال الوجودي الأزلي الذي يتردد صداه بقوة في عصرنا الحالي: من نحن؟

في خضم التحولات المتسارعة، وتصادم الثقافات، وضغط العولمة، وسيولة القيم التي تحدثنا عنها، يجد الفرد، وخاصة الشاب العربي، نفسه واقفًا على أرض

مهتزة، يتأرجح بين قطبين متجاذبين: الأصالة بما تحمله من ارتباط بالجذور والتراث والقيم المتوارثة، والذوبان أو التأثر بالآخر، بما يمثله من حداثة وتطور وإغراءات ثقافية واستهلاكية قادمة من الخارج. هذا التأرجح المستمر، وهذا الصراع الداخلي بين الانتماء إلى الذات والانجذاب نحو الآخر، هو جوهر أزمة الهوية التي نعيشها. وكما قيل بحق: "لقد انفلتنا من جذور هويتنا الأصيلة، وبدأنا نقلّد الآخرين ونتشبّه بهويات غريبة عنّا، حتى صرنا مسوخًا ممسوخة، لا نحمل هويتنا ولا هوية غيرنا، تائهين بين الأصل والدخيل، لا نحن نحن، ولا نحن هم."

لم تعد الهوية شيئًا ثابتًا وموروثًا نتلقاه بشكل طبيعي ونسلم به، بل أصبحت مشروعًا فرديًا قلقًا، رحلة بحث مضنية ومحفوفة بالمخاطر. نشعر بأننا نفقد ارتباطنا بماضينا، وبأن حاضرنا مشوش، ومستقبلنا غامض. نسأل أنفسنا: ما الذي يميزنا حقًا؟ ما هي قيمنا الأساسية التي يجب أن نتمسك

بها؟ وإلى أي مدى يمكننا أن ننفتح على العالم دون أن نفقد ذواتنا؟

هذا الفصل هو محاولة لتشريح هذه الأزمة المعقدة. سنستكشف أبعادها المختلفة، ونبحث في أسبابها العميقة، ونرصد تجلياتها في سلوكياتنا وأفكارنا وعلاقاتنا. لن نقدم إجابات جاهزة، فالأسئلة المتعلقة بالهوية غالبًا ما تكون أكثر أهمية من الإجابات نفسها. لكننا سنحاول أن نضيء بعض الزوايا المعتمة، وأن نفهم لماذا أصبح البحث عن الهوية في زمننا هذا رحلة محفوفة بالتيه.

ما هي الهوية؟ لغز يتجدد

قبل أن نخوض في تفاصيل الأزمة، من المهم أن نتفق على فهم مشترك لمفهوم "الهوية" نفسه. الهوية ليست مجرد بطاقة تعريف تحمل اسمنا وتاريخ ميلادنا، ولا هي كيان بسيط يمكن حصره في تعريف واحد. إنها مفهوم مركب ومتعدد الأبعاد، يشمل كل ما يجعلنا "نحن"، كأفراد

وكجماعات، ويميزنا عن غيرنا. يمكن النظر إليها من زاويتين متكاملتين: الهوية الفردية والهوية الجماعية. فالهوية الفردية تتعلق بذلك الإحساس العميق بالذات، بالشعور بالتميز والاختلاف عن الآخرين، وبالاستمرارية عبر الزمن رغم التغيرات. إنها تشمل قيمنا الشخصية التي نؤمن بها، ومعتقداتنا التي توجه أفعالنا، واهتماماتنا التي تشغل وقتنا، وطموحاتنا التي تدفعنا للمستقبل، وذكرياتنا التي تشكل ماضينا، وتجاربنا الفريدة التي تصقل شخصيتنا. إنها، في جوهرها، الإجابة الداخلية التي نقدمها عندما نسأل أنفسنا: "من أنا؟".

أما الهوية الجماعية، أو الاجتماعية، فتتعلق بانتماء الفرد إلى جماعات أكبر منه يتشارك معها روابط معينة. هذه الجماعات قد تكون الأسرة، أو القبيلة، أو الوطن، أو الأمة، أو الدين، أو الثقافة، أو اللغة، أو حتى جماعات أصغر مُوحّدة حول اهتمام مشترك. هذه الانتماءات تزود الفرد بشعور حيوي بالارتباط والتجذر، وتمنحه مجموعة من القيم

والمعايير والسلوكيات والرموز المشتركة التي تشكل هويته كعضو فاعل في هذه الجماعة. إنها الإجابة التي نقدمها عندما نسأل: "إلى من أنتمي؟" أو "ما هي الجماعة التي أجد فيها ذاتي؟".

والهوية، سواء كانت فردية أو جماعية، ليست شيئًا جامدًا أو ثابتًا يُكتسب مرة واحدة وإلى الأبد. بل هي عملية ديناميكية مستمرة، تتشكل وتتطور وتتغير عبر تفاعل الفرد المستمر مع بيئته الاجتماعية والثقافية ومع الآخرين من حوله. إنها تتأثر بعمق بالماضي، بما يحمله من تراث وتاريخ وذاكرة جماعية، وتتشكل وتتبلور في الحاضر من خلال التجارب اليومية والتفاعلات الاجتماعية والخيارات الفردية، وتتجه دائمًا نحو المستقبل، محملة بالطموحات والمشاريع والأحلام. في المجتمعات التقليدية التي كانت تتسم بقدر أكبر من الاستقرار والانسجام، كانت عملية تشكل الهوية تتم بشكل أكثر سلاسة وتلقائية. كان الفرد يرث هويته الجماعية (الدينية، القبلية، الوطنية) بشكل كبير، وكانت

هذه الهوية توفر له إطارًا مرجعيًا واضحًا وقويًا يحدد له مكانه في العالم ويوجه سلوكه. أما في عصرنا الحالي، عصر الحداثة السائلة والعولمة المتسارعة وتدفق المعلومات، أصبحت عملية بناء الهوية أكثر تعقيدًا وصعوبة وقلقًا. لم تعد الانتماءات التقليدية قادرة على توفير نفس الشعور باليقين والأمان والوضوح، ووجد الفرد نفسه أمام خيارات متعددة ومتناقضة أحيانًا، وأمام ضغوط هائلة للتكيف والتغيير، مما يجعله عرضة للضياع والتشظي وفقدان البوصلة الهوياتية.

أسباب أزمة الهوية في زمن التيه:

لماذا أصبحت الهوية أزمة في زمننا؟ لماذا هذا الشعور المتزايد بالضياع وفقدان البوصلة الهوياتية الذي يعاني منه الكثيرون، وخاصة الشباب؟ الأسباب متعددة ومتداخلة، وكثير منها يرتبط بشكل وثيق بالعوامل التي ناقشناها

في الفصل السابق كجذور للانهيار القيمي العام الذي نشهده.

أحد أبرز هذه الأسباب هو تأثير العولمة الثقافية والغزو الناعم. فكما أشرنا سابقًا، فتحت العولمة أبواب مجتمعاتنا على مصراعيها أمام تدفق هائل وغير مسبوق للمنتجات والأفكار والقيم والثقافات من جميع أنحاء العالم، وبشكل خاص من الثقافة الغربية المهيمنة اقتصاديًا وإعلاميًا. هذا التدفق، الذي يتم عبر وسائل الإعلام المختلفة، والإنترنت، والسفر، والتبادل التجاري، يحمل معه نماذج حياة وأنماط تفكير وسلوكيات غالبًا ما تكون مختلفة، بل ومتناقضة أحيانًا، مع قيمنا وثقافتنا المحلية المتوارثة. وتتجلى خطورة هذا التأثير في هيمنة النموذج الغربي، حيث يُقدم النموذج الأمريكي والأوروبي غالبًا على أنه النموذج "المثالي" للحداثة والتقدم والنجاح والسعادة. يتم تصدير قيمه، مثل الفردانية المفرطة، والمادية الطاغية، والنزعة الاستهلاكية الشرهة، والتحرر الجنسي المطلق، عبر قنوات

جذابة ومؤثرة كالأفلام والمسلسلات والموسيقى والموضة والإعلانات. هذا يخلق لدى الشباب، بشكل خاص، شعورًا بأن ثقافتهم المحلية "متخلفة" أو "غير عصرية" أو "مقيدة"، ويدفعهم إلى محاولة تقليد هذا النموذج الغربي في المظهر الخارجي والسلوك اليومي وطريقة التفكير، حتى لو كان ذلك على حساب هويتهم الأصيلة وقيمهم الجوهرية. على سبيل المثال، نرى كيف يقلد الشباب العربي أزياء المشاهير الغربيين دون مراعاة للثقافة أو المناخ، أو يتبنون أنماط حياة استهلاكية لا تتناسب مع إمكانياتهم المادية.

ويزيد من خطورة هذا الوضع ضعف المناعة الثقافية لدى مجتمعاتنا. ففي ظل ضعف مؤسساتنا التعليمية والثقافية والإعلامية في تعزيز الهوية الوطنية والقيم الأصيلة، وفي ظل غياب مشروع مجتمعي واضح المعالم يوحد الطاقات ويوجهها نحو أهداف مشتركة، تصبح مناعتنا الثقافية هشة وضعيفة أمام هذا الغزو الناعم.

نفتقد إلى الأدوات النقدية اللازمة التي تمكننا من التمييز بين ما هو إيجابي ومفيد في الثقافات الأخرى ويمكن الاستفادة منه، وبين ما هو سلبي وضار ويتعارض مع قيمنا وهويتنا وخصوصيتنا. نصبح، في كثير من الأحيان، مجرد مستهلكين سلبيين للثقافة الوافدة، نتبنى قشورها ومظاهرها البراقة دون فهم عمقها أو سياقها التاريخي أو آثارها بعيدة المدى. كما أن اللغة، باعتبارها حصنًا أساسيًا للهوية، تتعرض للتآكل. فاللغة العربية الفصحى، واللهجات المحلية، كلها مكونات أساسية في هويتنا الثقافية. لكننا نشهد تراجعًا مقلقًا في استخدام اللغة العربية الفصحى، وهيمنة متزايدة للغات الأجنبية، خاصة الإنجليزية والفرنسية، في مجالات حيوية كالتعليم والإدارة والإعلام والحياة اليومية. وحتى اللهجات نفسها تتعرض لتأثير كبير من اللغات الأجنبية، وتُستخدم أحيانًا بطريقة هجينة وممسوخة تفقدها أصالتها وجماليتها وقدرتها على التعبير الدقيق عن مشاعرنا وأفكارنا. هذا التراجع

اللغوي ليس مجرد تغيير في وسيلة التواصل، بل هو مؤشر خطير على تآكل أعمق في الهوية الثقافية وفقدان للثقة بالذات اللغوية. وقد أشار المفكر عبد الوهاب المسيري في تحليلاته إلى أزمة الإنسان المعاصر وفقدانه للمعنى في ظل سيطرة النماذج المادية والتقنية، وهو ما يتجلى بوضوح في هذا التآكل اللغوي.

وتلعب وسائل التواصل الاجتماعي دورًا محوريًا في تعميق أزمة الهوية، فهي تخلق فضاءً افتراضيًا موازيًا يمكن للأفراد فيه أن يصنعوا لأنفسهم هويات بديلة أو "أفاتارات" قد تكون مختلفة تمامًا عن هويتهم الحقيقية في الواقع. هذه المنصات تشجع بقوة على صناعة الصورة المثالية والمفلترة عن الذات. يسعى المستخدمون، بوعي أو بغير وعي، إلى إظهار أفضل جوانب حياتهم، أو ما يتخيلون أنه الأفضل والأكثر جاذبية للآخرين، وإخفاء نقاط ضعفهم ومشاكلهم وإحباطاتهم. هذا يخلق فجوة واسعة ومقلقة بين الهوية الحقيقية للفرد، بكل تعقيداتها

وتناقضاتها، والهوية الافتراضية المصقولة والمثالية التي يقدمها للعالم. وقد يؤدي هذا الانفصام إلى شعور مزمن بالقلق وعدم الرضا عن الذات، وإلى صعوبة في التعامل مع الواقع الحقيقي خارج حدود العالم الافتراضي. كما يبرز التقليد الأعمى للـ"مؤثرين" كظاهرة مقلقة. فقد أصبح "المؤثرون" (Influencers) على وسائل التواصل الاجتماعي نماذج يُحتذى بها ومصادر للإلهام (أو للتقليد) للكثير من الشباب. يتم تقليدهم في المظهر الخارجي، واللباس، وأسلوب الحياة، وحتى في الآراء والقيم والمواقف. والمشكلة أن الكثير من هؤلاء المؤثرين يقدمون محتوى سطحيًا أو ماديًا أو استعراضيًا، ويروجون لقيم استهلاكية أو فردانية أو حتى مبتذلة، وقد لا يمثلون نماذج إيجابية حقيقية يمكن الاقتداء بها لبناء شخصية متوازنة وسوية. هذا التقليد الأعمى يساهم بشكل كبير في طمس الهوية الفردية والجماعية، ويجعل الشباب يتبنون هويات مستعارة ومزيفة لا تعبر عن ذواتهم الحقيقية أو عن قيم مجتمعهم

الأصيلة. وفي هذا السياق، يبرز أيضًا ضياع الخصوصية وتشييء الذات. ففي سباق البحث المحموم عن الإعجابات والمتابعات والشهرة الافتراضية، قد يتخلى البعض عن خصوصيتهم بشكل مبالغ فيه، ويعرضون تفاصيل حياتهم الشخصية والحميمة للعلن دون تحفظ. تتحول الذات الإنسانية، بكل عمقها وكرامتها، إلى مجرد "منتج" يتم تسويقه وعرضه في الفضاء الافتراضي. هذا التشييء للذات يفقدها قيمتها الحقيقية، ويجعلها مجرد صورة سطحية قابلة للاستهلاك السريع والنسيان.

ولا يمكن إغفال دور أزمة التعليم في ضعف التربية على الهوية. فمنظومتنا التعليمية، كما ذكرنا، تفشل في كثير من الأحيان في تزويد الأجيال الجديدة بالمعرفة اللازمة والعميقة عن تاريخهم وتراثهم وثقافتهم الغنية والمتنوعة، وفي غرس الشعور بالاعتزاز بالهوية الوطنية والانتماء الحضاري. فالمناهج الدراسية، خاصة في مواد التاريخ والتربية الوطنية واللغة العربية، قد تكون قاصرة

عن تقديم صورة شاملة وعميقة ومحفزة عن الهوية العربية والإسلامية بكل أبعادها. قد تركز على الحفظ والتلقين للمعلومات بدلًا من التحليل والنقد والفهم العميق للسياقات والأحداث. وقد تُهمل جوانب مهمة من التراث الثقافي واللغوي، مثل التراث الأمازيغي أو الثقافات المحلية المتنوعة والغنية، مما يعطي انطباعًا بأن الهوية أحادية ومختزلة. هذا يجعل التلميذ يشعر بأن تاريخه وتراثه مجرد معلومات جافة ومملة لا علاقة لها بحاضره ومستقبله، ولا تمنحه شعورًا بالفخر أو الانتماء. كما أن غياب الأنشطة المعززة للهوية في المدارس يفاقم المشكلة. فالكثير من المدارس تفتقر إلى الأنشطة الموازية، سواء كانت ثقافية أو فنية أو رياضية أو اجتماعية، التي يمكن أن تساهم بشكل فعال في تعزيز الشعور بالانتماء، وتنمية المواهب الفردية والجماعية، وغرس القيم الوطنية والإنسانية بطريقة عملية ومحببة وجذابة. وهكذا، تظل المدرسة في كثير من الأحيان مجرد

مكان لتلقي الدروس النظرية واجتياز الامتحانات، دون أن تكون فضاءً حقيقيًا لبناء الهوية وصقل الشخصية وتنمية المواطنة الفاعلة.

وأخيرًا، يعيش الفرد في مجتمعاتنا حالة من التمزق المؤلم بين التقليد والحداثة. فهو يجد نفسه مشدودًا بين منظومتين قيميتين تبدوان متعارضتين ومتنافرتين: منظومة القيم التقليدية المتوارثة، المرتبطة بالدين والعادات والتقاليد والأسرة والجماعة، ومنظومة القيم الحديثة الوافدة، المرتبطة بالفردانية والعقلانية والحرية الفردية والتكنولوجيا. هذا التمزق يخلق حالة من الارتباك والقلق الهوياتي العميق. ويتجلى هذا التمزق بوضوح في صراع الأجيال. فجيل الآباء، الذي نشأ في ظل قيم تقليدية كانت أكثر رسوخًا ووضوحًا، يجد صعوبة كبيرة في فهم وتقبل قيم وسلوكيات جيل الأبناء، الذي نشأ في عصر العولمة والانفتاح الرقمي والتغيرات المتسارعة. والعكس صحيح، حيث قد يرى الأبناء في قيم آبائهم نوعًا من التخلف

أو الرجعية أو التقييد غير المبرر لحريتهم. هذا الصراع، إن لم يُدر بحكمة وحوار، يعمق الفجوة بين الأجيال ويضعف الروابط الأسرية والاجتماعية التي هي أساس تماسك المجتمع. وقد يلجأ الفرد، كمحاولة للتوفيق بين هذين العالمين المتناقضين، إلى ممارسة نوع من الازدواجية في السلوك والقيم. فقد يظهر بمظهر المحافظ الملتزم في بيئته الأسرية والاجتماعية التقليدية، بينما يتبنى سلوكيات وقيمًا مختلفة تمامًا في الفضاء العام أو في العالم الافتراضي أو عند السفر للخارج. هذه الازدواجية، وإن كانت تبدو كآلية للتكيف المؤقت، إلا أنها تزيد من الشعور بالتمزق الداخلي وفقدان الأصالة والانسجام مع الذات.

تجليات أزمة الهوية: أعراض الضياع

هذه الأسباب العميقة لأزمة الهوية لا تبقى مجرد تحليلات نظرية مجردة، بل تتجسد في سلوكيات ومظاهر ملموسة نراها ونلمسها في حياتنا اليومية، وهي بمثابة

أعراض واضحة لهذا الضياع الهوياتي الذي يعصف بالكثيرين. فمن أبرز هذه التجليات التقليد الأعمى للغرب، أو ما يسمى بالاستلاب الثقافي، والذي يتجلى في محاولة تقليد الغربيين في كل شيء تقريبًا: في طريقة اللباس والموضة، وفي طريقة الكلام (من خلال الإفراط في استخدام المفردات الأجنبية بشكل غير مبرر وفي غير محله)، وفي أنماط الاستهلاك المفرط، وحتى في طريقة التفكير والعلاقات الاجتماعية. يصبح كل ما هو غربي مرادفًا للتقدم والرقي والتحضر، وكل ما هو محلي أصيل مرادفًا للتخلف والرجعية. هذا التقليد الأعمى، وهذا الاستلاب الثقافي، هو من أخطر تجليات فقدان الثقة بالذات وبالهوية، ويعكس شعورًا عميقًا بالدونية تجاه الذات الحضارية. وكما قال المفكر مالك بن نبي في "شروط النهضة": "**إن القابلية للاستعمار تكمن فينا قبل أن تكون في المستعمر**".

وفي بعض الحالات المتطرفة، قد تصل أزمة الهوية إلى درجة احتقار الذات وكراهية الهوية الأصلية. يرى الفرد في انتمائه إلى ثقافته أو وطنه أو دينه سببًا لكل مشاكله وتخلفه ومعاناته، ويتمنى لو أنه ولد في مكان آخر أو انتمى إلى ثقافة أخرى يعتبرها أرقى وأفضل. هذا الشعور المدمر بالدونية وكراهية الذات يقود إلى حالة من الاغتراب التام عن الذات وعن الجماعة، ويجعل الفرد فريسة سهلة لأي دعوة تخلصه من "عبء" هويته.

وفي المقابل، وكرد فعل على الشعور بالتهديد الهوياتي والخوف من الذوبان، قد يلجأ البعض إلى الانغلاق والتعصب الشديد للهوية، سواء كانت وطنية أو دينية أو عرقية. يتم رفض كل ما هو قادم من الخارج بشكل مطلق، ويُنظر إلى الآخر المختلف بعين الشك والريبة والعداء. يتم تضخيم الشعور بالخصوصية والتميز، وأحيانًا التفوق، على الآخرين. هذا الانغلاق، وإن كان يبدو ظاهريًا كدفاع عن الهوية وحماية لها، إلا أنه في الحقيقة يعكس

هشاشتها وعدم ثقتها بنفسها وقدرتها على التفاعل الإيجابي مع العالم. فالهوية القوية بحق هي هوية منفتحة وواثقة، قادرة على الحوار والتفاعل والأخذ والعطاء مع الثقافات الأخرى دون أن تفقد خصوصيتها أو تخشى على وجودها.

ومن التجليات الشائعة أيضًا فقدان الشعور بالانتماء واللامبالاة. فعندما تضعف الروابط الهوياتية التي تربط الفرد بوطنه ومجتمعه، يفقد تدريجيًا شعوره بالانتماء الحقيقي والمسؤولية تجاههما. يصبح غير مكترث بما يحدث حوله من قضايا ومشاكل، ولا يشعر بأي التزام تجاه الصالح العام. تسود اللامبالاة والسلبية والتركيز على الهموم والمصالح الشخصية الضيقة. وهذا يضعف التماسك الاجتماعي، ويهدد مستقبل الوطن، ويفتح الباب أمام تفكك النسيج المجتمعي. على سبيل المثال، تراجع المشاركة الشبابية في العمل التطوعي أو المبادرات

المجتمعية في العديد من المدن العربية، يعكس هذا الشعور باللامبالاة.

وقد تتخذ أزمة الهوية شكل صراعات هوياتية داخلية مريرة داخل المجتمع الواحد. فقد يتم استغلال التنوع والاختلاف الطبيعي بين مكونات المجتمع المختلفة (سواء كانت عرقية أو لغوية أو جهوية أو دينية أو أيديولوجية) وتضخيمها وتحويلها إلى مصدر للتوتر والانقسام والصراع بدلًا من أن تكون مصدرًا للثراء والتكامل والتنوع الخلاق. وهذا يهدد الوحدة الوطنية، ويبدد طاقات المجتمع في صراعات داخلية عقيمة لا طائل من ورائها، ويجعله فريسة سهلة للتدخلات الخارجية.

وأخيرًا، عندما تفشل الهوية الأصلية في إعطاء الفرد شعورًا بالمعنى والقيمة والانتماء والأمان، قد يدفعه ذلك إلى البحث عن هويات بديلة في أماكن أخرى، قد تكون خطيرة ومدمرة أحيانًا. قد يجد البعض في الانضمام إلى

الجماعات المتطرفة، سواء كانت دينية أو سياسية، هوية جديدة توفر لهم شعورًا باليقين والقوة والانتماء والهدف، حتى لو كانت هذه الهوية قائمة على الكراهية والعنف ورفض الآخر. وقد يجد آخرون في الإدمان، سواء كان على المخدرات أو الكحول أو الإنترنت والألعاب الإلكترونية، مهربًا مؤقتًا من قلق الهوية وفراغ المعنى والشعور بالضياع.

نحو استعادة البوصلة: البحث عن هوية متوازنة

إن تشخيص أزمة الهوية وتحديد تجلياتها المختلفة ليس هدفًا بحد ذاته، ولا ينبغي أن يدفعنا إلى اليأس أو التشاؤم. بل هو خطوة أولى وضرورية نحو البحث الجاد عن حلول وعلاج. كيف يمكننا أن نستعيد بوصلتنا الهوياتية في خضم هذا التيه المعاصر؟ كيف يمكننا أن نبني لأنفسنا، كأفراد وكجماعات، هوية قوية، أصيلة، ومعتزة بذاتها، ومنفتحة على العالم في نفس الوقت؟ هوية تمنحنا

شعورًا بالمعنى والانتماء والكرامة، وتمكننا من التفاعل الإيجابي والمثمر مع العالم من حولنا؟

لا توجد وصفة سحرية جاهزة أو حلول سريعة لهذه المعضلة المعقدة. لكن هناك بعض المبادئ والتوجهات الأساسية التي يمكن أن تساعدنا في هذه الرحلة الصعبة والطويلة نحو استعادة التوازن الهوياتي. فالخطوة الأولى والأساسية هي الوعي بالذات وبالتاريخ. يجب أن نعرف أنفسنا أولاً، أن نفهم تاريخنا وتراثنا وثقافتنا بعمق وبموضوعية، بإيجابياتها وسلبياتها، بنقاط قوتها وضعفها. وهذا يتطلب قراءة نقدية واعية للتاريخ، وتعلمًا مستمرًا عن مكونات هويتنا المتعددة والغنية (العربية، الإسلامية، الإفريقية، المتوسطية...). فالوعي هو أساس الاعتزاز والثقة بالنفس، وهو نقطة الانطلاق لأي تغيير إيجابي. وكما قال الفيلسوف ابن خلدون في مقدمته: "**إن التاريخ في ظاهره لا يزيد عن الإخبار، ولكن في باطنه نظر وتحقيق**".

ثم يأتي دور التربية على القيم الأصيلة. يجب أن نعيد الاعتبار للقيم الإنسانية النبيلة التي تشكل جوهر هويتنا الحضارية، مثل الكرامة الإنسانية، والعدل، والرحمة، والتضامن، والإحسان، وطلب العلم، وإتقان العمل، واحترام الآخر، وغيرها من القيم التي حثت عليها أديياننا وثقافاتنا الأصيلة. هذه القيم ليست مجرد شعارات نظرية، بل يجب أن تتحول إلى ممارسات يومية وسلوكيات ملموسة في الأسرة والمدرسة والمجتمع وجميع مناحي الحياة. فالتربية العملية على هذه القيم هي أفضل تحصين للأجيال القادمة ضد الانحراف والذوبان وفقدان الهوية.

ولا يمكن إغفال أهمية تعزيز اللغة الوطنية. يجب أن نعتز بلغتنا العربية، وبلهجاتنا المحلية الغنية، وباللغة الأمازيغية كمكون أساسي في هويتنا. فاللغة ليست مجرد أداة للتواصل، بل هي وعاء الفكر والثقافة، وحاملة للذاكرة الجماعية. تعزيز استخدامها في جميع مناحي الحياة، ودعم تعليمها، وتشجيع الإبداع بها، هو استثمار في هويتنا

ومستقبلنا. كما أن الانفتاح الواعي على الثقافات الأخرى ضروري. فالهوية القوية ليست هوية منغلقة على ذاتها، بل هي هوية واثقة من نفسها، قادرة على التفاعل الإيجابي مع الآخر، والاستفادة من تجاربه، وأخذ ما ينفع وترك ما يضر، دون أن تفقد خصوصيتها. هذا الانفتاح الواعي يتطلب قدرة على التمييز والنقد، وليس مجرد تقليد أعمى. وكما قال المفكر محمد إقبال: "لا تكن كالغرب في تقليده الأعمى، بل كن كالنحلة التي تمتص رحيق الزهور المختلفة لتصنع عسلاً واحداً".

إن بناء هوية متوازنة في زمن التيه هو مشروع مستمر، يتطلب جهدًا فرديًا وجماعيًا، ووعيًا عميقًا بالتحديات، وإيمانًا راسخًا بقدرتنا على تجاوزها. إنه دعوة للعودة إلى الذات، ليس من باب الانغلاق، بل من باب الانطلاق الواثق نحو المستقبل.

الفصل الرابع

إعادة التوازن: سبل الخروج من الأزمة

"**كن أنت التغيير الذي تريد أن تراه في العالم**" -

المهاتما غاندي

بعد رحلتنا الطويلة في تشخيص "زمن التيه"، والغوص في جذوره، واستكشاف تجلياته في أزمة الهوية وعلاقتنا المضطربة بالدين والقيم، نصل الآن إلى محطة حاسمة: البحث عن مخرج. لم يعد يكفي أن نشخص الداء، بل حان الوقت لنفكر في الدواء، في الخطوات العملية التي يمكن أن نسلكها، كأفراد وجماعات، لنبدأ رحلة التغيير نحو الأفضل، ونستعيد بوصلتنا الأخلاقية، ونبني حصونًا في وجه تيارات الانحطاط والضياع.

قد يبدو حجم المشكلة هائلاً، وقد يشعر البعض بالإحباط. قد يتساءل الفرد: وماذا يمكنني أن أفعل أنا وحدي؟ الإجابة هي نعم، بكل تأكيد. التغيير الحقيقي يبدأ دائمًا من الداخل، من الفرد نفسه. كل واحد منا هو لبنة أساسية، وكل تغيير إيجابي نقوم به في أنفسنا أولاً، ثم

في محيطنا المباشر، هو خطوة ضرورية ومؤثرة. إن تراكم هذه الجهود الفردية الصادقة هو ما يصنع التحولات الكبرى. وكما يقول المثل الصيني: "**رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة**".

هذا الفصل هو دعوة صريحة للعمل، عمل داخلي عميق يبدأ من أعماق الذات، ثم يمتد ليشمل الأسرة والمجتمع. سنحاول هنا أن نرسم ملامح بعض الخطوات العملية الممكنة، بعض المسارات الواعدة للخروج من حالة التيه. لن نقدم وصفات جاهزة، لكننا سنقدم مبادئ وتوجهات عامة يمكن أن تشكل أساسًا متينًا لرحلة التغيير المنشودة.

أولاً: رحلة إلى الداخل - إصلاح الذات كأساس للتغيير

إن نقطة البداية لأي تغيير خارجي هادف هي التغيير الداخلي العميق. لا يمكننا إصلاح العالم إذا كانت نفوسنا مليئة بالعلل. لذلك، فإن الخطوة الأولى هي أن نبدأ

بأنفسنا، أن نخوض رحلة شجاعة وصادقة إلى أعماق ذواتنا، بهدف تزكيتها وتطهيرها.

تبدأ هذه الرحلة الداخلية بالمحاسبة والمراجعة الذاتية الدائمة. نحن بحاجة ماسة لأن نختلي بأنفسنا، لنسائل ذواتنا بصدق: أين نحن من القيم التي ندعي الإيمان بها؟ هل سلوكنا يتوافق مع مبادئنا؟ ما هي نقاط ضعفنا الأخلاقية؟ هذه الوقفة الصادقة هي بداية الوعي الذاتي. وكما قال الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا". تتطلب هذه المحاسبة شجاعة في الاعتراف بالخطأ، فالشجاعة تكمن في القدرة على الاعتراف بالخطأ والسعي لتصحيحه. يجب أن نتخلى عن كبريائنا وأن نكون مستعدين للاعتراف بتقصيرنا. فالاعتراف بالخطأ هو نصف الطريق إلى التوبة والإصلاح. ومن المهم أيضًا في هذه الرحلة الداخلية أن نعمل على تحديد الأهداف والقيم الشخصية التي نريد أن نحيا بها. ما هي القيم الأساسية

التي أؤمن بها؟ ما هو الإنسان الذي أطمح أن أكونه؟ إن تحديد هذه القيم والأهداف بوضوح يساعدنا على توجيه جهودنا نحو ما هو مهم وجوهري، ويعطي لحياتنا معنى أعمق.

بعد المحاسبة وتحديد الوجهة، تأتي مرحلة تزكية النفس وتطهير القلب كعملية مستمرة. وتعتبر العبادة الواعية من أهم وسائل هذه التزكية في المنظور الإسلامي. فالعبادات كالصلاة والصيام والزكاة والذكر وقراءة القرآن، ليست مجرد طقوس، بل هي وسائل فعالة لتزكية النفس وتقوية الصلة بالله. يجب أن نسعى لأداء هذه العبادات بوعي وحضور قلب، وأن نستشعر أثرها الروحي والأخلاقي. فالصلاة الحقيقية تنهى عن الفحشاء والمنكر. والصيام يعلمنا الصبر والتقوى. والزكاة تطهر نفوسنا من الشح. تتطلب هذه التزكية أيضًا مجاهدة النفس والهوى بشكل مستمر. فالنفس البشرية تميل إلى الشهوات، وقد تقود صاحبها إلى الانحراف. وكما يخبرنا

القرآن الكريم: "**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي**" [سورة يوسف: 53]. إن مجاهدة النفس، ومقاومة أهوائها، هي جهاد حقيقي يتطلب صبرًا ومثابرة. ولأن الإنسان معرض للزلل، فإن التوبة والاستغفار المستمر يمثلان عنصرًا أساسيًا. فباب التوبة مفتوح دائمًا، والله يفرح بتوبة عبده. يجب أن نجعل التوبة والاستغفار جزءًا لا يتجزأ من حياتنا، نجدد بهما العهد مع الله.

وأخيرًا، لا يمكن لهذه الرحلة الداخلية أن تكتمل دون طلب العلم والمعرفة النافعة. فالعلم هو النور الذي يبدد ظلمات الجهل. ويأتي في مقدمة هذا العلم "العلم الشرعي الصحيح"، ففهم الدين بشكل صحيح ومعتدل هو أساس الالتزام. يجب أن نسعى لتعلم أمور ديننا من مصادرها الموثوقة، وأن نفهم مقاصد الشريعة. لكن العلم النافع لا يقتصر على العلم الشرعي، بل نحن بحاجة أيضًا إلى المعرفة العامة والثقافة الواسعة. يجب أن نطلع على العلوم الإنسانية والاجتماعية، وأن نسعى لتوسيع ثقافتنا.

فالمعرفة الشاملة تساعدنا على فهم أنفسنا والعالم، وتزودنا بالأدوات النقدية. ويتوج كل ذلك بضرورة تنمية التفكير النقدي لدينا. يجب أن نتعلم كيف نفكر بشكل نقدي، كيف نحلل المعلومات، كيف نميز بين الحقيقة والشائعة. لا يجب أن نكون مجرد متلقين سلبيين، بل يجب أن نستخدم عقولنا للتدقيق والتقييم.

إن رحلة إصلاح الذات هي رحلة طويلة وشاقة، لكنها ضرورية ومثمرة، فهي الأساس المتين الذي يُبنى عليه كل تغيير إيجابي.

ثانياً: بناء الحصون - دور الأسرة والمؤسسات التعليمية

إذا كان إصلاح الذات هو نقطة البداية، فإن الأسرة والمؤسسات التعليمية هما الحصنان الأساسيان اللذان يمكن أن يضطلعا بمهمة تربية الأجيال على القيم الأصيلة، وتحصينهم ضد تيارات الانحراف.

تعتبر الأسرة المحضن الأول للقيم والأخلاق. ولكي تقوم الأسرة بهذا الدور، يجب أن تركز على عدة جوانب. يأتي في مقدمتها القدوة الحسنة التي يقدمها الآباء والأمهات. فالأطفال يتعلمون بالقدوة أكثر مما يتعلمون بالنصيحة. يجب أن يكون الآباء قدوة حسنة في سلوكهم وأخلاقهم والتزامهم بالقيم. ومن الضروري أيضًا بناء جسور الحوار والتواصل الفعال داخل الأسرة. يجب أن تكون الأسرة فضاءً آمنًا للحوار الصريح بين الآباء والأبناء. يجب أن يستمع الآباء لأبنائهم، ويتفهموا مشاكلهم، ويوجهوهم باللين. فالحوار الصادق يبني الثقة. ولا يمكن إغفال أهمية غرس القيم الدينية والأخلاقية بشكل مباشر ومقصود. يجب أن تحرص الأسرة على غرس القيم الأساسية في نفوس الأبناء، ولكن بطريقة محببة ومناسبة لأعمارهم. وأخيرًا، في عصر الانفتاح الإعلامي، تقع على عاتق الأسرة مسؤولية الحماية من المؤثرات السلبية. يجب على الآباء أن يكونوا واعين بهذه المخاطر، وأن يعملوا على حماية

أبنائهم، ليس بالمنع المطلق، بل بالتوعية والمراقبة الحكيمة، وتزويد الأبناء بالأدوات النقدية.

أما الحصن الثاني فهو المؤسسات التعليمية، والتي تلعب دورًا حاسمًا في بناء العقول وصقل الشخصيات. لكي تقوم هذه المؤسسات بدورها، يجب أن تولي اهتمامًا خاصًا لعدة جوانب. أولها ضرورة تضمين مناهج تركز على القيم بشكل واضح. يجب أن تتضمن المناهج الدراسية تركيزًا على القيم الأخلاقية والإنسانية. لا يجب أن يقتصر دور المدرسة على تلقين المعلومات، بل يجب أن تساهم في بناء شخصية الطالب المتكاملة. ويلعب المعلم القدوة دورًا محوريًا. فالمعلم ليس مجرد ناقل للمعلومات، بل هو مربٍ وموجه. يجب أن يكون المعلم قدوة حسنة في علمه وسلوكه وأخلاقه. كما يجب الاهتمام بتفعيل الأنشطة الموازية المعززة للقيم. فهذه الأنشطة ليست مجرد ترفيه، بل هي أدوات تربوية فعالة تساهم في اكتشاف مواهب الطلاب وتنمية مهاراتهم. وأخيرًا، يجب أن تعمل

المؤسسات التعليمية بجد على التربية على المواطنة وحقوق الإنسان. يجب أن تسعى لتربية الطلاب على قيم المواطنة الصالحة، وتنمية شعورهم بالمسؤولية تجاه وطنهم. كما يجب أن تغرس فيهم قيم احترام حقوق الإنسان، والتسامح، وقبول الاختلاف.

إن إصلاح الأسرة والمؤسسات التعليمية وتفعيل دورهما هو استثمار حقيقي في مستقبل أي مجتمع.

ثالثاً: الخروج إلى المجتمع - المبادرة والإيجابية والتأثير

التغيير الحقيقي لا يقتصر على إصلاح الذات وبناء الحصون الداخلية، بل يجب أن يمتد ليشمل المجتمع. كل واحد منا يمكن أن يكون عنصرًا إيجابيًا وفاعلًا، يساهم في نشر الخير.

تبدأ هذه المساهمة المجتمعية بأن تكون إيجابيًا ومبادرًا. وأول خطوة هي التخلص من السلبية. لا تقل "ماذا

يمكنني أن أفعل وحدي؟". بل كن مهتمًا بما يجري حولك. ثم ابدأ بنفسك وبمحيطك المباشر، فالتغيير يبدأ من الدوائر القريبة. كن مثالاً حيًا للصدق والأمانة والإتقان. ولا تحتقر أي عمل خير مهما بدا صغيرًا، فانشر الخير ولو بكلمة طيبة أو ابتسامة صادقة. الكلمة الطيبة صدقة، كما علمنا رسولنا الكريم: "الكلمة الطيبة صدقة" [حديث شريف]. انشر الإيجابية والتفاؤل.

ومن أهم مظاهر الإيجابية في المجتمع القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالحكمة. فهذه الشعيرة تمثل مسؤولية جماعية في الإسلام، وهي صمام أمان للمجتمع. يقول تعالى: "**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**" [سورة آل عمران: 110]. لكن هذه المسؤولية يجب أن تُمارس بضوابطها حتى تؤتي ثمارها. يجب أن يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة، وباللين والرفق، وليس بالشدة.

فالهدف هو الإصلاح. وكما أمرنا الله تعالى: "ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ" [سورة النحل: 125]. ومن الحكمة أيضًا مراعاة التدرج والأولويات. نبدأ بأنفسنا قبل أن نتوجه للآخرين. نركز على الأصول والقضايا الكبرى. ومن المهم أيضًا التركيز على نشر المعروف وتشجيعه بنفس القدر الذي نهتم به بالنهي عن المنكر. فبدلًا من التركيز على السلبيات، يجب أن نهتم بإبراز النماذج الإيجابية.

إن التغيير المجتمعي يتطلب تضافر الجهود، والعمل بروح الفريق، والإيمان بأن كل مساهمة، مهما بدت صغيرة، لها أثرها في بناء مجتمع أفضل.

خاتمة الأزمة: نحو استعادة القيم وبناء إنسان جديد

"**المستقبل ليس شيئًا ننتظره، بل هو شيء نصنعه**" - مقولة منسوبة لعدة شخصيات

ها نحن نصل إلى المحطة الأخيرة في رحلتنا الفكرية والنفسية عبر دروب "زمن التيه" الذي استعرضنا ملامحه وتحدياته. بعد أن بذلنا الجهد في تشخيص الداء الذي ألم بمجتمعاتنا، وبحثنا في جذوره العميقة والمتشابكة، واستعرضنا تجلياته المؤلمة في مختلف جوانب حياتنا، ورسمنا ملامح بعض المخارج الممكنة والمسارات العملية نحو التغيير في الفصل السابق، يظل السؤال الأكبر والأكثر إلحاحًا يتردد في الأذهان ويقرع أبواب القلوب: هل لنا خلاص حقيقي؟ هل يمكن لمجتمعاتنا، التي تبدو أحيانًا وكأنها غارقة في بحر لجي من التحديات والأزمات القيمية والأخلاقية والاجتماعية، أن تجد طريقها نحو شاطئ الأمان ومستقبل أفضل وأكثر إشراقًا؟ هل الأمل الذي نتحدث عنه هو مجرد وهم نتعلل به لنسكن آلام الواقع، أم أنه حقيقة

ممكنة يمكن أن تتحقق بجهدنا الواعي وعملنا الدؤوب وإرادتنا الصلبة؟

إن محاولة استشراف المستقبل ليست ضربًا من التنجيم أو قراءة خيوط الغيب، فتلك أمور لا يعلمها إلا الله. بل هي محاولة واعية وجادة لفهم المسارات المحتملة التي قد تسلكها مجتمعاتنا بناءً على قراءة متأنية لمعطيات الحاضر، واستيعاب عميق لسنن التغيير الاجتماعي والتاريخي التي تحكم حركة المجتمعات صعودًا وهبوطًا. فالمستقبل ليس قدرًا محتومًا يُفرض علينا فرضًا ولا نملك حياله شيئًا، بل هو في جزء كبير منه نتاج لتفاعلات معقدة وديناميكية بين الظروف الموضوعية المحيطة بنا وبين إرادتنا الحرة واختياراتنا الواعية كأفراد وجماعات. نحن لا نملك القدرة على تغيير الماضي الذي ولى وانقضى، ولكننا نملك بلا شك القدرة على التأثير في الحاضر الذي نعيشه، ومن خلال ذلك، نملك القدرة على صناعة المستقبل الذي نطمح إليه ونسعى لتحقيقه.

في هذا الفصل الأخير والختامي، سنحاول أن نقدم رؤية مستقبلية، لا تدعي امتلاك اليقين المطلق أو تقديم إجابات نهائية، ولكنها تسعى بصدق لفتح نوافذ الأمل في النفوس، وتقديم بعض السيناريوهات المحتملة التي قد نواجهها، واستلهام الدروس والعبر من نماذج ناجحة في التاريخ والتجارب المعاصرة، وتوجيه دعوة أخيرة وصادقة للعمل الجماعي المنظم والمستمر من أجل بناء مستقبل يليق بنا وبأجيالنا القادمة التي سترث هذا الوطن وهذه الأمة.

أولاً: سيناريوهات المستقبل - بين هاجس التشاؤم وبارقة التفاؤل

عندما نتأمل واقعنا المعقد والمتشابك، وننظر بعين فاحصة إلى التحديات الجسيمة التي تواجه مجتمعاتنا على مختلف الأصعدة، يمكن أن تتراءى لنا سيناريوهات مختلفة ومتناقضة للمستقبل، تتراوح في طبيعتها بين التشاؤم

القاتم الذي قد يصيب البعض بالإحباط واليأس، وبين التفاؤل الحذر الذي يرى بصيص النور في نهاية النفق.

أحد هذه السيناريوهات هو سيناريو الاستمرار في التيه، وهو السيناريو الذي يمثل الجانب التشاؤمي من المعادلة. يفترض هذا المسار المحتمل استمرار وتفاقم الأزمات الحالية التي نعاني منها دون حدوث تغيير حقيقي وجذري في المسار الذي نسير فيه. في ظل هذا السيناريو القاتم، يمكن أن نتوقع زيادة حدة الاستقطاب والانقسام داخل مجتمعاتنا، حيث تتسع الفجوة بين التيارات الفكرية والسياسية والدينية المختلفة، وتتحول الخلافات الطبيعية في وجهات النظر إلى صراعات مفتوحة ومدمرة. سيؤدي ذلك حتمًا إلى إضعاف النسيج الاجتماعي وتآكل قيم التسامح والتعايش وحسن الجوار التي طالما ميزت مجتمعاتنا. وبالتوازي مع ذلك، سـيتعمق الانحطاط القيمي والأخلاقي، حيث تستمر قيم الاستهلاك المفرط والفردية المفرطة والأنانية المقيتة في الانتشار على حساب قيم

التضامن والمسؤولية الجماعية والإيثار. وسينعكس ذلك في زيادة معدلات الجريمة والفساد والتفكك الأسري وغيرها من الأمراض الاجتماعية. كما ستـتفاقم أزمة الهوية التي يعاني منها الكثيرون، وخاصة الشباب، حيث يزداد شعورهم بالضياع وفقدان الانتماء، وقد يتجه البعض منهم، يأسًا أو بحثًا عن بدائل زائفة، نحو التطرف الفكري أو الديني، أو نحو الإلحاد والعدمية، أو نحو الهجرة اليائسة وغير الشرعية بحثًا عن خلاص فردي موهوم. وفي ظل هذا الوضع، سيـضعف دور المؤسسات المحورية في المجتمع، حيث قد تفقد المؤسسات الدينية والتعليمية والإعلامية مصداقيتها وقدرتها على التأثير الإيجابي في الناس، بل قد تصبح في بعض الأحيان جزءًا من المشكلة بدلًا من أن تكون جزءًا من الحل. وأخيرًا، ستـتسيطر ثقافة السطحية والتفاهة على الفضاء العام، حيث تهيمن برامج الترفيه السطحي والمحتوى الهابط على اهتمامات الناس، وتتراجع الاهتمامات الجادة بالقضايا المصيرية للمجتمع

والأمة. إذا تحقق هذا السيناريو، لا قدر الله، فإن مجتمعاتنا ستكون مهددة بمزيد من التخلف والتبعية والاضطراب الداخلي، وقد تدخل في دوامة خطيرة من العنف والفوضى يصعب الخروج منها. إنه سيناريو قاتم ومخيف، لكنه للأسف ليس مستحيلًا إذا استسلمنا لليأس والسلبية واللامبالاة.

في المقابل، هناك سيناريو آخر ممكن، وهو سيناريو الصحوة والنهضة، الذي يمثل الجانب التفاؤلي والمشرق. يفترض هذا السيناريو حدوث وعي جماعي متزايد بخطورة الوضع الراهن، وتوفر إرادة حقيقية وصادقة لدى قطاعات واسعة من المجتمع للتغيير نحو الأفضل، وتضافر الجهود وتكاملها من أجل بناء مستقبل مشرق ومزدهر. في ظل هذا السيناريو المفعم بالأمل، يمكن أن نتوقع انتشار الوعي النقدي بين الناس، وخاصة بين فئة الشباب الواعد، حيث يزداد وعيهم بالتحديات الحقيقية التي تواجه مجتمعهم، ويبدأون في مساءلة الأوضاع القائمة بجرأة

ومسؤولية، والتفكير العميق في الحلول الممكنة والمبتكرة. ونتيجة لهذا الوعي، ستتعزز قيم الحوار والتسامح في المجتمع، حيث تسود ثقافة الحوار البناء وقبول الاختلاف والتنوع، وتتراجع خطابات الكراهية والتطرف والإقصاء. سيتم التركيز على القواسم المشتركة التي تجمع أبناء الوطن الواحد بدلًا من التركيز على نقاط الخلاف والتنافر. كما ستستعيد القيم الأصيلة مكانتها اللائقة في حياة الناس، حيث يحدث تجديد حقيقي في فهم القيم الدينية والأخلاقية الأصيلة المستمدة من تراثنا الغني، ويتم ربطها بواقع العصر وتحدياته بوعي وبصيرة. ستنتشر قيم المسؤولية الفردية والجماعية، والعمل الجاد والمتقن، والإيثار والتكافل الاجتماعي، والأمانة والصدق في المعاملات. وبالتوازي مع ذلك، ستتقوى الهوية الوطنية والحضارية لدى أبناء المجتمع، حيث يعتز الناس بهويتهم وانتمائهم الوطني والحضاري، مع الحفاظ على انفتاح واعٍ ومسؤول على الثقافات الأخرى للاستفادة من

تجاربها الإيجابية. سيتم استلهام الجوانب المشرقة من تراثنا التاريخي والحضاري، وتوظيفها بحكمة لبناء حاضر قوي ومستقبل واعد. ولكي يتحقق ذلك، لا بد أن تتجدد المؤسسات وتستعيد دورها الريادي، حيث تقوم المؤسسات الدينية والتعليمية والإعلامية والثقافية بمراجعة شجاعة لأدوارها وتجديد خطابها وأساليب عملها، لتصبح قاطرة حقيقية للتغيير الإيجابي والتنمية الشاملة في المجتمع. وأخيرًا، ستزدهر المبادرات الإيجابية الفردية والجماعية في مختلف المجالات الحيوية (كالتعليم، والصحة، والبيئة، والعمل التطوعي، وريادة الأعمال الاجتماعية، والثقافة والفنون الهادفة...)، وستساهم هذه المبادرات بشكل فعال في حل المشكلات القائمة وتحسين حياة الناس ورفع مستوى وعيهم ومشاركتهم.

إذا تحقق هذا السيناريو الواعد، فإن مجتمعاتنا ستكون قادرة بإذن الله على تجاوز أزماتها المتراكمة، وتحقيق نهضة حقيقية وشاملة ترتكز على أسس قوية من القيم

والأخلاق والعلم والعمل والعدل. إنه سيناريو مشرق ومفعم بالأمل، لكن تحقيقه ليس بالأمر الهين، بل يتطلب جهدًا كبيرًا وعملاً دؤوبًا وتضحيات جسيمة وإرادة صلبة لا تلين من الجميع.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن: أي السيناريوهين أقرب إلى التحقق في واقعنا؟ الحقيقة الموضوعية هي أن المستقبل ليس محددًا سلفًا بأحد هذين السيناريوهين المتطرفين بشكل حصري. فالواقع غالبًا ما يكون أكثر تعقيدًا وتداخلًا، وقد يكون مزيجًا مركبًا من عناصر هذا السيناريو وذاك. قد نشهد تقدمًا ملحوظًا في بعض المجالات وتراجعًا مقلقًا في مجالات أخرى في نفس الوقت. قد تظهر بوادر صحوة وأمل في مكان ما، بينما يستمر التيه والضياع في مكان آخر. لكن الأهم من محاولة التنبؤ الدقيق بما سيحدث في المستقبل هو أن ندرك ونؤمن بأننا لسنا مجرد متفرجين سلبيين على مسرح الأحداث، ننتظر ما ستؤول إليه الأمور، بل نحن فاعلون أساسيون ومؤثرون في

تحديد المسار الذي ستسلكه مجتمعاتنا في قادم الأيام. إن خياراتنا التي نتخذها اليوم، وجهودنا التي نبذلها اليوم، ومواقفنا التي نتبناها اليوم، هي التي سترجح كفة أحد السيناريوهين على الآخر في نهاية المطاف. فإذا اخترنا السلبية واليأس والاستسلام للواقع المرير، فإننا نمهد الطريق، بوعي أو بغير وعي، لتحقق السيناريو التشاؤمي. وإذا اخترنا الإيجابية والأمل والعمل الجاد والمثابرة، فإننا نزيد من فرص تحقق السيناريو التفاؤلي الواعد ونقترب منه خطوة بخطوة.

ثانياً: نماذج ملهمة - دروس من التاريخ والتجارب الناجحة

لكي نعزز الأمل في نفوسنا ونشحذ هممنا نحو العمل، من المفيد أن نلقي نظرة على التاريخ البشري وتجارب الأمم المعاصرة، فهي مليئة بقصص وحكايات الأمم والمجتمعات التي مرت بأزمات خانقة وتحديات جسيمة

كادت أن تعصف بها، لكنها استطاعت بفضل الله ثم بفضل إرادة أبنائها وعملهم الدؤوب أن تنهض من كبوتها، وأن تحقق تحولات كبرى نحو الأفضل في مختلف المجالات. إن دراسة هذه التجارب الناجحة، واستلهام الدروس والعبر منها، يمكن أن يمنحنا الأمل والإلهام، ويزودنا ببعض الأفكار العملية والمبادئ التوجيهية لمسيرتنا نحو التغيير المنشود.

على سبيل المثال، يمكننا أن نتأمل في النهضة الأوروبية التي انطلقت بعد قرون طويلة من الظلام والتخلف والجمود الفكري في العصور الوسطى. لم تكن هذه النهضة وليدة الصدفة أو نتيجة حتمية، بل كانت نتاجًا لتراكم جهود مضنية بذلها أجيال من المفكرين والعلماء والفنانين والمصلحين الذين تجرأوا على تحدي الجمود الفكري والتقليد الأعمى، ودعوا إلى إعمال العقل وتحرير الفكر، وأحيوا التراث الكلاسيكي اليوناني والروماني، ووضعوا الأسس المتينة للعلم الحديث والدولة القومية

الحديثة. الدرس الأساسي الذي يمكن أن نستخلصه من هذه التجربة هو الأهمية القصوى للعقل والعلم والحرية الفكرية كقاطرة أساسية لأي نهضة حقيقية تسعى إليها أمة من الأمم.

وإذا نظرنا إلى الشرق، نجد التجربة اليابانية الفريدة والمذهلة. فبعد هزيمتها المدمرة في الحرب العالمية الثانية، والتي تركت البلاد خرابًا ودمارًا، استطاعت اليابان أن تنهض من تحت الأنقاض بسرعة قياسية، وأن تتحول في غضون عقود قليلة إلى قوة اقتصادية وتكنولوجية عالمية يُحسب لها ألف حساب. اعتمدت اليابان في نهضتها هذه على مزيج فريد وخلاق، حيث استطاعت أن تتمسك بقيمها التقليدية الأصيلة التي تشكل جزءًا من هويتها (مثل الانضباط الشديد، والعمل الجماعي المنظم، واحترام الكبار والتسلسل الهرمي، والولاء للمؤسسة التي يعمل فيها الفرد)، وفي نفس الوقت انفتحت بذكاء على العلوم والتكنولوجيا الحديثة القادمة من الغرب، واستثمرت بشكل

هائل وغير مسبوق في التعليم وتنمية الموارد البشرية وتطوير الصناعة. الدرس البليغ الذي نتعلمه من اليابان هو إمكانية تحقيق المزاوجة الخلاقة والناجحة بين الأصالة والمعاصرة، والأهمية الحاسمة للتعليم الجيد والعمل الجاد والمتقن في بناء الأمم وتحقيق تقدمها.

وفي عالمنا الإسلامي المعاصر، يمكن أن نستلهم من تجربة مهاتير محمد في ماليزيا. فعندما تولى مهاتير محمد رئاسة الوزراء في ماليزيا عام 1981، كانت البلاد تعاني من مشاكل اقتصادية واجتماعية وتوترات عرقية معقدة. لكنه استطاع، من خلال رؤية واضحة وشجاعة وسياسات حكيمة ومدروسة، أن يقود بلاده نحو تحول اقتصادي مذهل جعلها واحدة من النمور الآسيوية، وأن يعزز الوحدة الوطنية والتعايش السلمي بين الأعراق المختلفة (الملايو والصينيين والهنود)، وأن يرفع مستوى معيشة المواطنين بشكل ملحوظ. ركز مهاتير وفريقه على عدة محاور أساسية، منها محاربة الفساد بجدية، وتشجيع الاستثمار

المحلي والأجنبي، وتطوير التعليم والبحث العلمي، وغرس قيم العمل والإتقان والاعتماد على الذات في نفوس المواطنين. الدرس الهام الذي تقدمه لنا تجربة ماليزيا هو أهمية القيادة الحكيمة ذات الرؤية الواضحة والإرادة الصلبة، والدور المحوري للحكم الرشيد ومحاربة الفساد في تحقيق التنمية المستدامة والنهضة الشاملة.

ولا ننسى أن تاريخنا الإسلامي نفسه يزخر بنماذج مضيئة ومشرقة لأفراد وجماعات استطاعوا أن يحدثوا تغييرًا إيجابيًا عميقًا في مجتمعاتهم في ظروف صعبة ومعقدة. بدءًا من الجيل الأول من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، الذين حملوا رسالة الإسلام السمحة ونشروها في الآفاق بقوة إيمانهم الراسخ وحسن أخلاقهم الرفيعة وصبرهم على الأذى، مرورًا بالعلماء والمصلحين الربانيين الذين ظهروا عبر العصور وجددوا فهم الدين وحاربوا البدع والانحرافات وحافظوا على هوية الأمة وقيمها، وصولًا إلى الحركات الإصلاحية الحديثة والمعاصرة التي سعت بجد

لمواجهة تحديات الاستعمار والتخلف والتبعية والدعوة إلى التجديد والنهضة. الدرس الجوهري الذي نستخلصه من تاريخنا هو أن الإيمان الحقيقي بالله والقيم الأخلاقية السامية يمكن أن تكون دافعًا قويًا ومحركًا جبارًا للتغيير والإصلاح والتضحية، وأن الأمة الإسلامية، رغم ما قد تمر به من فترات ضعف أو تراجع، قادرة دائمًا على إنجاب المصلحين والقادة والعلماء الذين ينهضون بها عند الشدائد ويعيدون لها مجدها وعزتها.

ماذا نتعلم إذن من كل هذه النماذج الملهمة، سواء من تاريخنا أو من تجارب الآخرين؟ نتعلم دروسًا ثمينة، منها أنه لا مستحيل مع الإرادة الصادقة والعزيمة القوية، فالأزمات والتحديات، مهما كانت كبيرة ومعقدة، لا يجب أن تدفعنا إلى اليأس أو الاستسلام. ونتعلم أهمية الرؤية الواضحة والقيادة الحكيمة، فالتغيير الإيجابي يحتاج إلى رؤية مستقبلية واضحة المعالم، وإلى قيادة حكيمة وملهمة قادرة على حشد الطاقات وتوحيد الصفوف وتوجيه الجهود

نحو الهدف المنشود. وندرك مجددًا أن العلم والتعليم هما أساس أي نهضة حقيقية، فلا يمكن لأمة أن تنهض وتتقدم بدون تعليم جيد وعلم نافع وتفكير نقدي بناء. ونتأكد من أن القيم والأخلاق هي الضمانة الأساسية لاستدامة أي تقدم، فالتنمية الاقتصادية والتكنولوجية وحدها لا تكفي، بل قد تكون مدمرة إذا لم ترتكز على منظومة قيمية وأخلاقية متينة تضمن العدالة والتكافل والاستقرار الاجتماعي وتحفظ كرامة الإنسان. ونتعلم أيضًا أهمية المزاوجة الذكية بين الأصالة والمعاصرة، فلا يجب أن ننبذ تراثنا وقيمنا الأصيلة بدعوى الحداثة، ولا يجب أن ننغلق على أنفسنا ونرفض الاستفادة من منجزات العصر وعلومه بدعوى الخصوصية. التحدي الحقيقي يكمن في إيجاد التوليفة المناسبة التي تجمع بين أفضل ما في تراثنا وأصالتنا وأفضل ما في العصر ومعطياته. وأخيرًا، تؤكد كل هذه النماذج أن التغيير الحقيقي يبدأ دائمًا من الداخل، من

الفرد نفسه، من إصلاح النفس وتزكيتها، ومن الالتزام الصادق بالقيم في السلوك اليومي قبل الدعوة إليها.

ثالثاً: دعوة للعمل - معًا نصنع المستقبل

بعد هذه الرحلة الطويلة في التشخيص والتحليل واستلهام النماذج، نصل إلى الدعوة الأخيرة في هذا الكتاب، وهي ليست مجرد دعوة للتفكير أو التأمل، بل هي دعوة صريحة ومباشرة للعمل، دعوة للأمل المقرون بالعمل، دعوة لصناعة المستقبل الذي نريده لأنفسنا ولأجيالنا القادمة بأيدينا وجهدنا وعرقنا.

هذه الدعوة موجهة إلى كل فرد منا، بغض النظر عن عمره أو جنسه أو موقعه أو إمكانياته. ابدأ بنفسك، فهذه هي نقطة البداية الحقيقية والأساسية. لا تنتظر أن يتغير الآخرون من حولك أو أن تتغير الظروف الخارجية لتتحرك. ابدأ أنت بإصلاح نفسك، بتزكية روحك، بتقويم سلوكك، بتطوير معرفتك ومهاراتك. كن أنت التغيير الذي تريد أن

تراه في العالم من حولك. تمسك بقيمك الأصيلة ومبادئك النبيلة، ولا تتنازل عنها مهما كانت الضغوط أو الإغراءات. اعتز بهويتك ودينك وأخلاقك، وكن ثابتًا كالجبل الراسخ في وجه رياح التيه والانحراف. كن إيجابيًا ومبادرًا في حياتك، وانشر الأمل والتفاؤل في محيطك. بادر بفعل الخير ولو كان صغيرًا في نظرك، وساهم في خدمة مجتمعك بما تستطيع من وقت أو جهد أو مال أو فكر. لا تحتقر دورك أبدًا مهما بدا بسيطًا، فقطرة الماء مع أختها تصنع نهرًا. اطلب العلم والمعرفة باستمرار، واقرأ، وتعلم، وفكر، وانقد بشكل بناء. لا تكن أسيرًا للجهل أو للأفكار السطحية أو للشائعات المغرضة. فالعلم هو سلاحك الأقوى في مواجهة تحديات العصر وفهم تعقيداته. وأخيرًا، اختر صحبتك بعناية، فـ "المرء على دين خليله". ابحث عن الصالحين والمصلحين والإيجابيين، وكن منهم ومعهم. فالصحبة الصالحة تعينك على الثبات في طريق الخير وتدفعك نحو الأفضل دائمًا.

وهذه الدعوة موجهة أيضًا إلى الأسر والمربين، فأنتم تتحملون أمانة عظيمة في تنشئة الأجيال. كونوا قدوة حسنة لأبنائكم وتلاميذكم، فأنتم المحضن الأول الذي تتشكل فيه القيم والسلوكيات. كونوا قدوة في أقوالكم وأفعالكم، في صدقكم وأمانتكم، في عبادتكم وأخلاقكم. اغرسوا القيم النبيلة في نفوس الصغار منذ نعومة أظفارهم، ربوهم على حب الله تعالى وحب رسوله صلى الله عليه وسلم، وحب الوطن، وحب الخير للناس جميعًا. علموهم قيم الصدق والأمانة والمسؤولية والتسامح والاحترام والتعاون. حصنوا الأبناء ضد المؤثرات السلبية التي يتعرضون لها في عصر العولمة والانفتاح الإعلامي غير المسبوق. زودوهم بالمناعة الفكرية والأخلاقية اللازمة ليميزوا بين الغث والسمين، وليواجهوا الأفكار الهدامة بثقة ووعي. افتحوا باب الحوار معهم، استمعوا إليهم باهتمام، حاوروهم بلطف، تفهموا مشاكلهم وهمومهم وتطلعاتهم، ووجهوهم بالحكمة واللين والإقناع.

كما نوجه هذه الدعوة إلى العلماء والمفكرين والمثقفين، فأنتم عقل الأمة ومناراتها. جددوا الخطاب الديني والثقافي، وقدموا فهمًا عميقًا ومعاصرًا للدين والقيم، يجيب على أسئلة العصر ويتفاعل مع تحدياته بوعي وبصيرة. واجهوا التطرف والسطحية بكل أشكالهما، تصدوا للأفكار المتطرفة والمنحرفة التي تشوه صورة ديننا وقيمنا، وواجهوا ثقافة التفاهة والسطحية التي تنتشر كالنار في الهشيم، وذلك بالحجة الدامغة والبرهان الساطع والبديل الجذاب. كونوا منارات حقيقية للهداية والإرشاد، انشروا العلم النافع والمعرفة الصحيحة، وشجعوا على التفكير النقدي والإبداع، وكونوا قدوة للناس في الاستقامة الفكرية والأخلاقية والسلوكية. ابنوا جسور التواصل والحوار بين مختلف التيارات الفكرية والثقافية في المجتمع، واعملوا على تعزيز الوحدة الوطنية ونبذ الفرقة والخلافات المدمرة.

وأخيرًا، نوجه هذه الدعوة إلى صناع القرار والمسؤولين في مختلف مواقعهم، فأنتم مؤتمنون على مصالح البلاد والعباد. حاربوا الفساد بكل حزم وقوة، فالفساد هو أكبر معول لهدم القيم وتدمير المجتمعات وإعاقة التنمية. يجب أن تكون محاربة الفساد بكل أشكاله أولوية قصوى لا تهاون فيها. استثمروا في الإنسان، فهو الثروة الحقيقية لأي أمة. استثمروا في تعليمه، في صحته، في تنمية قدراته ومهاراته، في توفير فرص العمل الكريم له. عززوا العدالة الاجتماعية، واعملوا على تقليص الفوارق الطبقية، وتوفير الفرص المتكافئة للجميع، وضمان حقوق الضعفاء والمحتاجين. فالعدل أساس الملك، وهو صمام أمان لاستقرار المجتمعات وازدهارها. ادعموا المبادرات الإيجابية في المجتمع، وشجعوا العمل التطوعي، وافتحوا الأبواب أمام الطاقات الشابة والمبدعة للمساهمة في بناء الوطن. سنوا القوانين العادلة التي تحمي القيم والأخلاق، وتجرم الفساد والانحراف، وتضمن الحقوق والحريات المسؤولة،

وتطبق على الجميع دون استثناء أو تمييز. وأخيرًا، كونوا قدوة حسنة في النزاهة والشفافية والمسؤولية، فصلاح القيادة هو أساس صلاح الرعية.

إن صناعة المستقبل الذي نطمح إليه ليست مهمة فرد واحد أو جهة واحدة، بل هي مسؤولية جماعية تقع على عاتق الجميع. إنها تتطلب تضافر الجهود، وتكامل الأدوار، والعمل بروح الفريق الواحد، والإيمان بأننا قادرون على التغيير إذا صدقت النوايا وتوحدت الجهود. إن الأمل ليس مجرد شعور عاطفي، بل هو قوة دافعة للعمل، وهو إيمان راسخ بأن الغد يمكن أن يكون أفضل إذا عملنا من أجله اليوم. فلنعمل جميعًا، كل من موقعه، من أجل بناء مستقبل يليق بنا وبأجيالنا القادمة، مستقبل تسوده القيم والأخلاق، ويزدهر فيه العلم والمعرفة، وينعم فيه الجميع بالعدل والكرامة والأمن والسلام.

المراجع

- باومان، زيجمونت. (2016). **"الحياة السائلة"**. ترجمة حجاج أبو جبر. الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

- محمود، مصطفى. (أعمال متعددة، منها **"الروح والجسد"**). إشارات عامة لكتاباته حول الفراغ الروحي.

- ماكلوهان، مارشال، وفيوري، كوينتن. (1967). **"الوسيط هو التدليك: جرد للآثار"** (The Medium is the Massage: An Inventory of Effects). بانتام بوكس.

- فروم، إريك. (1976). **"أن تملك أو أن تكون؟"** (To Have or to Be). (توجد ترجمات عربية متعددة).

- بيجوفيتش، علي عزت. (1984). **"الإسلام بين الشرق والغرب"**. (توجد ترجمات عربية متعددة).

- ابن خلدون. (1377). **"المقدمة"**.

- القرآن الكريم. سورة يوسف، الآية 53.

- القرآن الكريم. سورة آل عمران، الآية 110.

- القرآن الكريم. سورة النحل، الآية 125.

- **الحديث الشريف .**"الكلمة الطيبة صدقة." (متفق عليه، رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه).

- **عمر بن الخطاب، رضي الله عنه** مقولة: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا." (مقولة مشهورة عن عمر بن الخطاب، رواها الإمام أحمد في الزهد، وابن المبارك في الزهد والرقائق، وغيرهما).